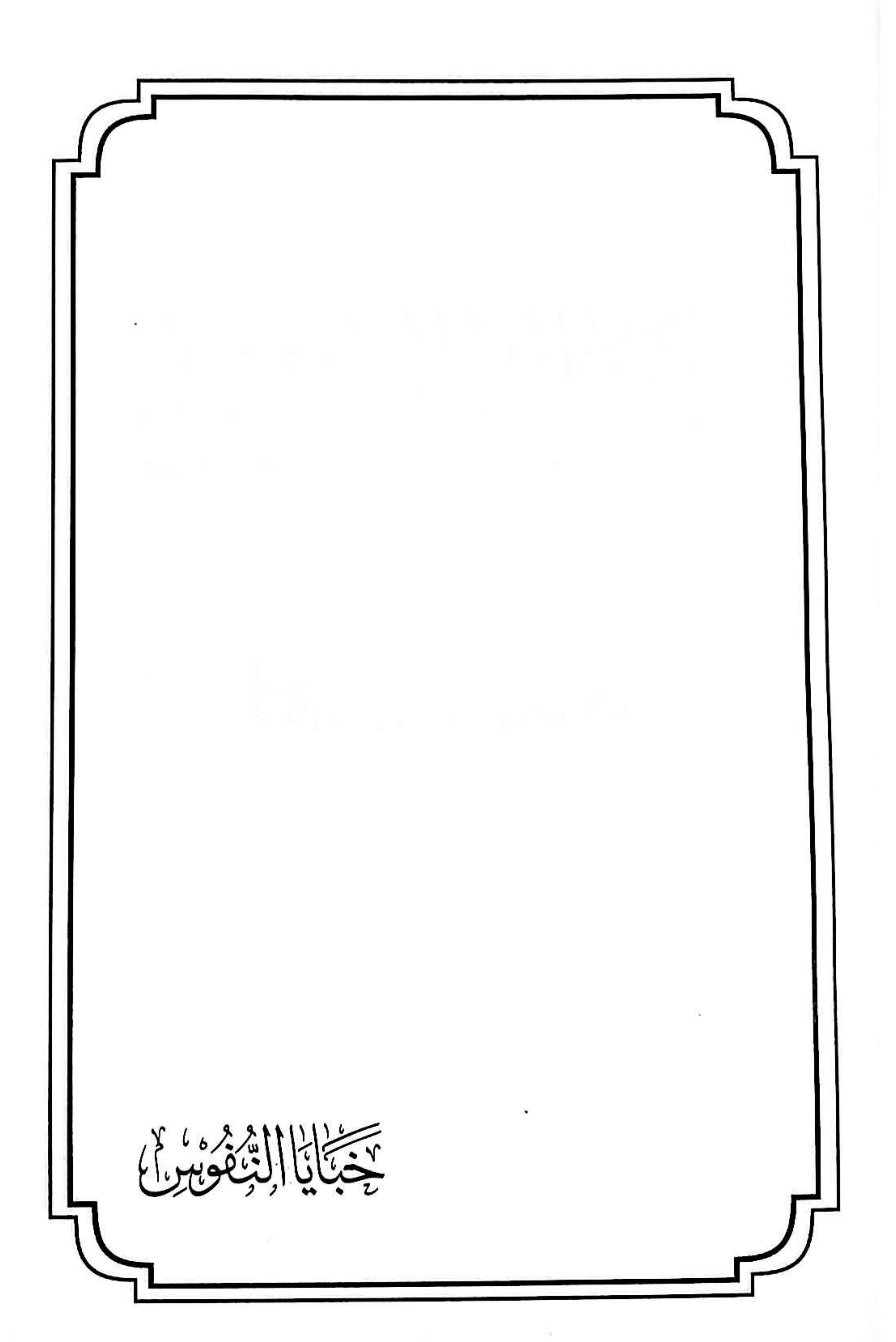
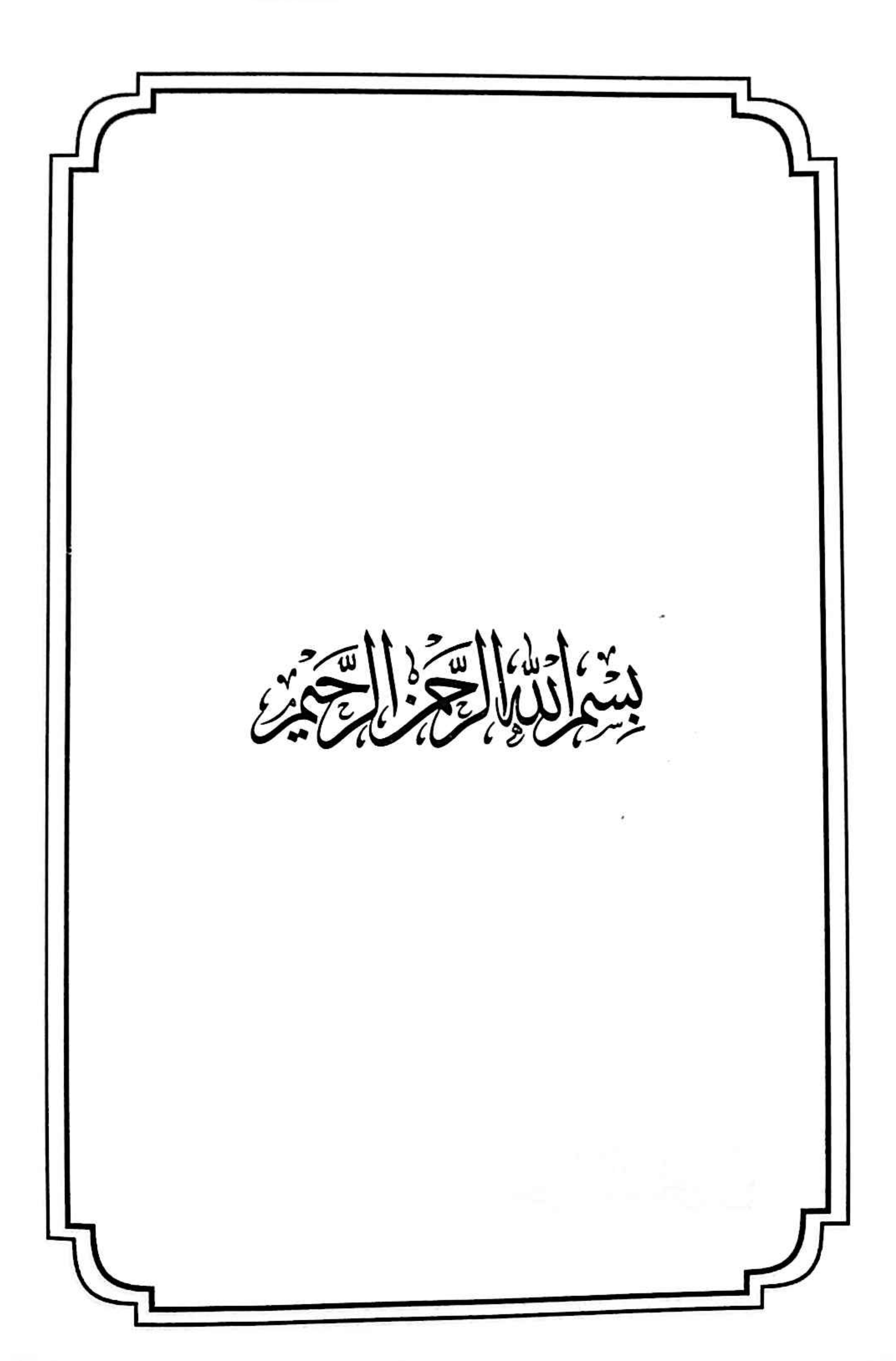
خبايا النفوس

أسئلة وكشف

تأليف الأستاذ الدكتور
عبد العزيز بن علي الحربي

دار ابن حزم


خبايا النفوس


بسم الله الرحمن الرحيم

خبايا النفوس



تأليف الأستاذ الدكتور

عبد العزيز بن علي الحربي

دار ابن حزم

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م



ISBN 978–9959–856-47-0

دار ابن حزم

بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com

مقدمة

سُبحان مَن يَعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، ومن لا يَخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، تعالى جدُّه وتبارك اسمُه. وسِع كلَّ شيء عِلمًا، علَّم الإنسانَ ما لم يَعلمْ، وكلُّ علمٍ عَلِمَه أحدٌ من خلقِه فهو مِن عِلمه، وكلُّ ما علِموه على كثرته فهو لديه علمٌ قليل. فلله الحمد على ما علَّم، وصلّى على نبيه وسلَّم.

وبعد: فإنّ «خبايا النفوس» كتابٌ خارج من كهفٍ مضيءٍ بالتأمُّل في أحوال النفس وطبائعها الظاهرة والباطنة؛ والتأمّلُ في مثل هذا لا يكمُل إلا إذا طُبِع المتأمِّل على شيء من الفضول، والبحث عن الخفايا والخبايا.

وفي هذه الخبايا نوعُ اجتهادٍ في التحليل والكشف، والنقصُ في ذلك والخطأُ ممكنان.

وقد عرَضتُ لك -أيها القارئ- شيئًا من طبيعة نفسي، وطَرفًا من تفكيري؛ ومَن كان كذلك أصابه بعضُ القوم بِعَضِّ اللوم. وأنا أسألُ الله لي ولهم أن يُلهمَ أنفسَنا تقواها، وأن يُزكِّيَها، إنه خيرُ مَن زكّاها.

خبايا النفس

كتبتُ ما كتبتُه في هذا الكتاب؛ ابتغاءَ الإحماض عند استراحة الخاطر، من البحث والقراءة في مسائل الشّريعة والتّأليف فيها وفي التّفسير واللّغة وغيرها من العلوم، وللذّهن أحوال مختلفة، ويصلح في كلّ حال ما لا يصلح في حال أخرى، وأحسب أنّ عامّة أذهان النّاس -لاسيما أهل العلم- كذلك، وإن كثيرًا من الناس عن أذهانهم لغافلون.

فإنّ للذهن من الأحوال ما يُشتاق فيه مرّة إلى الحفظ، وتارة يَعرض له شيءٌ سمّيته بالجوع الذّهني، وهو تَشوُّقُه إلى تفكيك المسائل المعقدّة، والبحث في الأمور الغامضة، وتارة يودّ أن يريح نفسه ليَدع الخيال يَسبح في آماله، وآونةً يَحِنّ إلى أخبار العلماء السّابقين.

وفي كثير من الأحيان تَرِدُ على الذّهن مسائل وأفكار عارضة منها ما هو غالٍ، ومنها ما هو دون ذلك. فأسارع -ساعتها- إلى تقييد ذلك، وإلى نقل الفكر من مسألة إلى مسألة، ومن جولة إلى جولة، وليس بيني وبين اجتماع جيوش الفكر إلا أنْ أُمسك بالقلم، وأكتبَ

كلمات، ولو كتب المرء كلَّ ما يتردد بالخاطر، لكَتَب الغثّ والسّمين، والدّقيق والجليل. وربما كتبتَ اليوم شيئًا تظنه من نفيس الأفكار، ثم تراه غدًا كحصاة بين دُرَر.

سببُ ذلك تزيينُ النّفس لما أنتَجه العقل ولا ثقةَ بتقلبات النفس حتى يَرِدَ على ما تؤيِّده مدّة كافية للشهادة بنفاسة ما أنتجه العقل.

في أنفس بني آدم زوايا، وفي الزوايا خبايا، ومِن الخبايا أسرار كامنة لا يراها إلا المتوسمون، وفي أنفس المتوسمين أسرار لا يرونها، وكلّ ما في الإنسان من طباع وأحوال شاهد على أنه مخلوق ضعيف النفس والإرادة والهوى. وهو ضعيف البنية، ومن آيات ضعفه نقض العزم، وقديمًا كان لأبينا آدم حظّ من ذلك ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾.

وإنّ الغفلة آية من ضعف ابن آدم، وكذلك النسيان والذهول، وإنّ كلّ خلق مذموم هو دليلٌ من أدلة الضعف النفسي والعقلي، وهل يَكذبُ من يَكذبُ، ويَخدعُ من يَخدعُ، ويُخْلفُ الوعد من يُخْلفُ، ويَخونُ من يَخونُ، ويَغدِرُ من يَغدِرُ، إلا من ضَعفه؟ وهل يُعاند من يُعاند، ويَظلم من يَظلم، ويَبغي من يَبغي، إلا من ضعفه؟

والضّعف الذي أعنيه في هذه الصفات هو الضعف المكتسب، وأمّا من كان سويّ الفطرة، ولم يَرد على فطرته ما يغيرها عن أصل طباعها فلا يكون منه إلا السلامة.

*****

(٠١)

تغلغلات في أعماق النفس

قد تجدُ في الناس من إذا رُزئ غيرُه بمصيبة في نفسه أو ماله أو ولده يُسَرُّ في داخلته، ويدافع ذلك بإظهار الحزن والتأثر، ويجد في نفسه خفّة لخدمة المصاب.

الكشف:

سرّ ذلك -والله أعلم بما في أنفسهم- أنّ السّرور دخل عليه من جهة أنّه سلم من تلك المصيبة، وأنّها لم تقع عليه، وربما ظنّ أنّه أكرمُ على الله إذ اختار له السّلامة، هذا هو السّرّ القريب، والسّرّ البعيد هو أن قلبه لا يخلو من حسدٍ على المبتلى، أو يرى أنّ الله عاقبه لظلمه له.

*****

(٠٢)

حبّ الثّناء بعد الموت

ما سرّ محبة الإنسان الثّناء ولو بعد موته، ولو كان لا يؤمن بالبعث؟

الكشف:

أمّا محبة الثّناء بعد الموت لمن يؤمن باليوم الآخر فلا عجب فيه

لعلمه أنّ الثّناء ينفعه، وأنّه بمنزلة النّائم الذي يمدح، وسيكون للمدح أثرٌ فيه حين يفيق، سواء علم بالثّناء أو لم يعلم.

أمّا من كان لا يؤمن باليوم الآخر، كالجاهليين الذين قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩﴾ [الأنعام: ٢٩]، وكالجاحدين بوجود الخالق، فهؤلاء يحبون الثّناء؛ لأنّهم يدركون أنّ ذلك يفرح من يحبّهم ويغيظ من يبغضهم، وهذا أمر يشاركهم فيه الأوّلون من المصدِقين بالبعث. وثَمّ سرٌّ آخر خُدع به الجاحد بالبعث، وهو إدراكُه وهو حيّ محاسنَ الثّناء على الميت، وطمعُه في دخيلة نفسِه أنْ يكونَ مثلَه حين يُكنُّ في رَمسه.

*****

(٠٣)

جهل الإنسان

كيف يقع في عقلٍ عاقلٍ أن يقف الكافرون على النّار، ويتمنَّوْا أن يُردّوا إلى الدّنيا ليعملوا صالحًا، ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه؟

الكشف:

لا جواب على هذا إلا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وتالله لولا خبر ربّنا الذي لا ريب فيه أنهم سيعودون لما

نهوا عنه لو رُدّوا لما صدّقنا، ولكن الله بكل شيء عليم.

ولعلهم يقولون لأنفسهم: بل نحن مسحورون، أو: ما كان هذا إلا أضغاث أحلام، أو: خدعنا ربّنا -تعالى الله-، أو: لأنّ الله ينسيهم ما كان، ويبتليهم من جديد.

*****

(٠٤)

لِمَ يُصاب الرّجل بجنون العشق، ولا تصاب المرأة به؟

الكشف:

هذا سؤال حسن صحيح، ولي في هذا الباب فلسفة يحسن تفصيلها في أمور:

أحدها: للحبّ درجات، والعشق من آخرها، والنّساء أصدق حبًّا في منازله الأولى، والرّجال إليه أسرع، فإذا بلغ الحبّ مرتبة العشق لدى الرّجل كان أصدق وأثبت.

الثّاني: من عادة النساء التّرقي في منازل الحبّ مع الصّدق في كلّ منزلة، ومن العادة في الرّجال أن العشق يبهتهم فلا يستطيعون ردّه، وهؤلاء المبهوتون هم الذين يورثهم العشق الوساوس والجنون.

الثّالث: أنباء العاشقين من الفريقين تفيد أنّ مجانين العشاق أصيبوا بجنون العشق لأنهم حرموا الوصل أو لم يرتووا منه، والمرأة عادة تكون هي المطلوبة لا الطّالبة، فالرّجل لا يمنعه أحد أن يصل وأن يوصل، والمرأة ليست كذلك.

الرّابع: يتمثّل لي أنّ المرأة لا يهجم العشق إلا على قلبها، وأمّا الرجل فيغشى على عقله وقلبه، وشاهد ذلك أنّ في النّساء طائفة أصابتهن مصيبة الموت عشقًا، وأصبحن قتيلات الهوى بلا دية ولا قود.

*****

(٠٥)

رضا العاملين

لِمَ يرضى العاملون مع الغنيّ -ولو كانوا فقراء- بالرّاتب القليل، ولا يرضون بمثله أو أكثر منه قليلا عند غيره؟

الكشف عن ذلك من وجوه:

أحدها: أنّهم يقولون في أنفسهم: قليل دائم خيرٌ من كثير منقطع.

الثّاني: أنهم يعيشون على الرّجاء والأمل أن يزيدهم يومًا من الدّهر.

الثّالث: أنهم قد يجدون في بعض الأحيان أعطيات زائدة على مكافآتهم.

الرّابع: أنّ العامل يأمُل إن عثر به الدّهر أن ينقذه الغنيّ.

الخامس: أنّ العامل يعجبه أن يقول النّاس: فلان يعمل لدى فلان التّاجر.

السّادس: أنّ النّاس يعظمون المال والدّنيا، ويحبّون العيش في ظلّ أهلهما، وإن لم ينالوا إلا شيئًا قليلًا، هذا أمرٌ وضعه الله في القلوب.

*****

(٠٦)

لِمَ يتفاوت النّاس في الملل؟

الكشف:

الملل طبع لا يسلم منه بشر، ولم يرد ذكره في الكتاب العزيز، وورد فعل السّآمة، وهي بمعنى قريب منه، ولا يعدّ مذمومًا؛ لأنه طبع لا يضرّ، ولهذا لم يشرع لنا الاستعاذة منه، كالهمّ والحزن، والعجز والكسل، بل ثبت في الخبر إسناده إلى الله في قول النّبي عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله لا يَمَلّ حتى تملّوا»، وفيه دليلٌ على أنه لا يذمّ بإطلاق، حتى لو قلنا: إنّه

من باب المشاكلة.

ولكنّ الملل إذا ترقّى إلى الضّجر، وطال أمده، ولم ينتقل صاحبه إلى بديل يجدّد فيه حياته، أو يرفع عنه الملل، فسينتقل إلى الهمّ والاكتئاب. ولعلّك لا تعجب إن قلت لك: إنّ من بعض أسبابه علوّ الهمّة، ومن عادته التّنقّل.

والملل يكون في كلّ ما يألفه الإنسان من عبادة، وعلم، وعمل، وطعام، وشراب، ونكاح، ومصاحبة، ومسكن، ومركب، وفي هذا كلّه عجائب وغرائب، هذه صور كاشفة تكشف لك أنّ في الملل درجات تجعل المرء يخاطر بأغلى ما كان يطلبه.

وأوّل صورة في ذلك ملل الحُبّ، وذكر ابن حزم في كتابه «طوق الحمامة» أنّ أبا عامر محمّد بن أبي عامر، كان يكلف بالجارية، فإذا صارت في ملكه وأحبّته زهد فيها من فوره.

ومن فضلاء صحبتي من هو قريبٌ من أبي عامر، كان مزواجًا، وكان إذا بنى بالمرأة ملّها، وتلّها للجبين.

*****

(٠٧)

الوسواس!

هل من كشفٍ عن حال الموسوس، والباعث له على الوسوسة:

الكشف:

الموسوس لا يكاد يقع في الكبائر؛ لأنه في معظم وقته مشغول بالوسواس في أمور عُفي عنها، فكيف يقع في كبائر الذّنوب، وهو يرى صغير زلله ذنوبًا كالجبال؟ وهذا أمر تتبعتُ فيه من عرفته من الموسوسين، ومن سألني منهم وسألته، فلن تجد موسوسًا أو موسوسة يقع أحدهما أو كلاهما في فاحشة، بل لا يقع في مقدِّماتها. إلا أن يكون الوسواس في أولى درجاته، فقد يحصل منه شيءٌ من الوقوع في مقدماته، ثم يكون ذلك محرّكًا للوسواس، يزيد في قوته وإزعاجه، فهو كالحافظ أو كالحامي لهم من غوائل الموبقات وارتكاب الكبائر، ولو سألتَ أحدهم عن ذلك لأعرض عن سؤالك لبعده عن باله، وغيابه عن حاله.

ومن الموسوسين من كان الباعث على وسواسه ذنبًا ارتكبه فقَسا على نفسه في اللوم، وضعف رجاؤه، وقلّ يقينه، وساء ظنّه بربّه، وأيقظ في نفسه خلايا اللّوم، ودبّ فيه الوسواس.

واعترف لي أحدهم أنّه كان يقع في نوع من ذنوب الشّهوات، فأخذه تأنيب الضّمير إلى الحذر من الوقوع في أي ذنب، فتولّد عنه وسواس، ولم يعد بعد ذلك إلى ذلك الذّنب.

سِرّ ذلك: قسوة زائدة على النّفس، ولومٌ كبير، فخوفٌ عظيمٌ، فقلّة رجاء، ثم يتلجلج في صدره: هل غُفر لي؟ هل بقي الذّنب؟ ثمّ يتولّد من ذلك كثرة سؤالٍ للنّفس، ثم يأخذه الوسواس إلى موضع يصلح له، وأكثر ما يكون في الطهارة والطّلاق، ويجد الشيطان بعد ذلك مرتعًا صعبًا فيزيد الوسواس طغيانًا، ويزيده رهقًا. ويرتع فيه ويلعب، فإذا وافق عزمًا خبت نيران الوسواس، فإذا ضعف العزم قويت نيرانه، والمبتلَون بذلك متفاوتون.

وفي كثير من الأحيان أقول للسّائل -على سبيل التهدئة والبشرى-: إنّ هذا الوسواس مصنع يَدرّ عليك الحسناتِ، وحسابٌ مفتوح من الثّواب يصبّ عليك الأجر صبًّا؛ لأنّك أحد المجاهدين أنفسهم، ولأنه بلاء يجزى عليه صاحبه، و﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزُّمَر: ١٠]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: يدرأ عنك الوسواس الجرأة على الإثم والمعصية، والأصل في المحرّك للوساوس هو الخوف أن يمسّك عذابٌ من الرّحمن، إلا أنك غفلت عن جانب

آخر، خارت فيه قواك، وضعف رجاؤك، ووجد الشّيطان مدخلا ينفذ إليك منه، والشّيطان يعمل في الموضع المتاح له، ولـمّا لم يجد سبيلًا إلى إغوائك أو إضلالك، أراد أن ينغصّ عليك حياتك وعبادتك، ووجد فيك قابلية لذلك، وهذا الوسواس الذي يُهيّج الشّيطان ويلازم صاحبَه سببُه النّفسُ اللّوامة، وسمعتُ أنّه يصدر من نشاطِ خلايا في المخّ، وهذا هو الأقرب؛ بدليل أنّ صاحبه ينتفع بالأدوية، والوسواس الشّيطاني لا تنفع فيه الأدوية الطّبية.

*****

(٠٨)

غريبة!

من العجائب المحيّرة: أنّ الإنسان قد يسمع الحكمة المنثورة أو المنظومة، فيهتزّ لها وجدانه، ويتحرّك لها خاطره، وقد مرّ عليه مثلها في كلام الله، ولم تأخذ من قلبه ذلك المأخذ، ولا اهتزّت لها نفسه، فما سبب ذلك؟

الكشف:

لا أقدّر لذلك إلا سببًا واحدًا، وهو: أنّ الإنسان يعظّم الحكمة من حكماء البشر؛ لأنّها معبّرة عن نظيره، ويسري إليه شيءٌ من

الغِبطة أو الإعجاب، أو التحسّر على نفسه؛ إذا قصّر، وفضل غيرُه.

ومثل ذلك مثل خادم يسمع كلام الملك وحكمته فيصدّق ما يسمع لكنه لا يتأثّر بذلك، كما يتأثّر بالحكمة الغالية يسمعها من قرينه ومن كان في طبقته من ذوي المهنة.

ولكن العقلاء الموقنين لا يؤثّر فيهم شيءٌ كما يؤثّر كلام الله وكلام رسوله، وما يسمعونه من حكم بني آدم يأخذون به بقدره، والجاهل تؤثّر فيه (الشيلة)، أو القصيدة العامية، أو غير العامية أكثر من القرآن والسّنة.

*****

(٠٩)

متى لا تصدَّق المرأة؟

الكشف:

لا تصدّق المرأة حين تقول: أكرهك، ولا تصدّقها أكثر إذا قالت: أكرهك من قلبي، ولا تصدّقها أكثر إذا قالت: لا أريد أن أراك.. و...، و...، ولا تصدّقها أكثر إذا قالت: طلّقني، ولا تصدّقها أكثر إذا قالت: طلِّقْني طلّقني.

فإنّ المرأةَ تُعبِّر في انفعالها بمثل هذه العبارات على قدر محبّتها وتعلّقها. واسألْها حين الرّضا تصدقْكَ.

وأعقلُ الأزواج زوجان صديقان، إنْ تنافرا بداعي الزّوجية اصطلحا بداعي الصّداقة.

وأحمق الأزواج زوجان يؤذي كلّ واحد منهما الآخر باسم الحبّ والغيرة.

وأحمق من ذلك رجلٌ دعته امرأته إلى طلاقها في وقت غضب وانفعال، فقال: أنت طالق طالق طالق.

وأعرف رجلًا أنزهُه عن الحُمق عنه، طلّقَ امرأته ثلاثًا وقال لها: أنتِ عليّ كظهر أمّي، وأنت محرّمة عليّ إلى يوم الدّين، لسببٍ تافهٍ، ثم أخذ يُهرعَ إلى مشايخ الفُتيا للخروج من هذه الورطة!

*****

(١٠)

لِمَ يخجل بعض النّاس من العَود إلى من بالغ في إكرامهم؟

الكشف:

هذه حقيقة تقع لبعض الناس، ولا تقع إلا للكرماء، هذا إذا كان

خجلا. وأمّا إن كان خوفًا من المقارضة بالمثل فهذا لا يكون إلا من البخلاء.

ولْنعد إلى الكرام وأسرارهم في هذا، فنقول:

إنّهم في ذلك على أنواع؛ نوعٌ تأبى نفسه أن تُكرَم ولا تُكرِم، ونوعٌ آخر يرى أنه لا يستحق ذلك الإكرام، ونوعٌ ثالثٌ أدرك مقامَه ومنزلته عند من أكرمه، ويهرب من أي عارض يخرم ذلك السّياج، ونوع رابع لا يريد الإثقال على المُكرم، ونوعٌ خامس يقع في نفسه أن يقول المُكرِم: احلَولى له الإكرام الأوّل فأراده مرّة أخرى، وعلى هذا أكثرهم.

فهذه خمسة أصناف لا سادس لها.

*****

(١١)

محبّة حزن المحبوب!

فإن قلت: فلأيّ معنًى يحبّ المحبّ أن يحزن المحبوب عليه؟

قلتُ: هذا يعود إلى أمر شرحتُه في موضع آخر، وهو محبّة المرء لذاته وإيثارُ سعادتها، وهذا من الخبايا المنضوية في دخائل النفوس،

فما من مدّع للمحبّة إلا وهو طالب لراحة نفسه وإسعادها، وإنّما يتمنى سعادة محبوبه لأنها شرط كمال سعادته هو.. والخلق بعد ذلك في هذا مختلفون في الدّرجات.

*****

(١٢)

غضب الحليم

لأي شيءٍ يقلّ غضب الحليم؟

الكشف:

إنّما يكون الحليم حليمًا لكِبَر حُلُمِه، والحلُم: العقل، وأكبرُ ما يعانيه العاقلُ هو النّظرُ في العواقب والمعاني، فهو يدرك مراميَ الأقوال والأفعال والأحوال، ويدرك عاقبة غضبه، وعاقبة حِلمه، والحِلم من الحكمة التي يؤتيها الله من يشاء، ولا يكون الحكيم عجولا ولا غضوبًا، ولا تعتريه خفّة ولا طيش، فإن اعتراه شيءٌ من ذلك طبّعه بعلمه وحلمه وحكمته، وقد يكون الحكيم غضوبًا حين يُهان، حليمًا فيما سوى ذلك؛ لأنّ الفيلسوف يرى الدّنيا ألعوبة صبيّ، ويعلم أنّه ليس بصبيّ.

وأكبر عقول بني آدم هي التي ترى الدّنيا كذلك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

*****

(١٣)

الحفظ والنّسيان

لم كان الحفظ في ترك المعاصي، الذي قاله وكيع بن الجرّاح، وسبَكه الشّافعي في البيتين المشهورين:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي فأرشَدَني إلى تركِ المعاصي
وقالَ: اعلمْ بأن العلمَ نورٌ ونورُ الله لا يُهدى لعاصِ؟

الكشف:

جوابه فيه، وكشفه ظاهر؛ فقد ردّ ذلك إلى أن القلب العاصي لا يصلح أن يكون محلّا للأنوار الإلهية، كما أنّ القاذورات لا تصلح أن تكون موضعًا للمسك والعود والعنبر، وهذا معنًى صحيح مجرّب من حيث الجملة، وهو من الدّلائل على أنّ موضع العقل في القلب، وهو موضع الحفظ أيضًا، والذّنوب أنواع، أكثر الذّنوب معاندة للحفظ ذنوب الشّهوات، لا ذنوب الشّبهات والضّلالات.

هذا كشف عرفاني، وأمّا الكشف العلميّ لهذا؛ فهو أن تفرق القلب

وجمعه بين الشيء وضدّه، والاختلاج عن توحّد الهدف، وحين لا يكون الهمّ همًّا واحدًا تتماحَى الأشياء المخزونة في القلب، ويُنسي بعضها بعضًا.

ألا ترى أنّ المرء يكون من أنقى خلق الله وأورعهم، فما هو إلا أن يشتغل بزعامة أو رياسة بعيدة عن العلم حتى يضعف حفظه، ويكثر نسيانه ووهمه في العلم.

ومثل الاشتغال بالرياسة الاشتغالُ بالسّياسة، والتّجارة، وهمّ الرّزق والأهل والولد، ويُروى عن الشّافعيّ نفسه قوله المأثور: «من حمل همّ بصَلة، لم يحقّق في العلم حتى مسألة».

وقد بيّنتُ لك: أنّ ذنوب الشّهوات هي التي تشغل القلب، أمّا ذنوب الشّبهات والضّلالات فإنّ أصحابها تتوحد أذهانهم إلى ما هم فيه، وربّما زادهم ذلك حدّة، واحتدامًا لخواطرهم، وجلاء لأذهانهم؛ لأنّهم يخوضون في المسائل الغامضة، والغامضات تزيد الذّهن القوي قوّة، وقد كان الضّالون المكذبون من العباقرة أذكياء، ولهم حوافظ وأذهان قوية، وسعة في الفكر، غير أنّهم محرومون من آثار أنوار العلم، وإن كانوا يحفظونه، ويتلونه.

*****

(١٤)

من أسرار اصطياد الدّنيا بالآخرة

هذا بحرٌ عميق يغرق فيه من أراد معرفة خباياه وأسراره؛ لأنه لا يسلم من هذا إلا الموقنون، وقليلٌ ما هم، وأنا أذكر ههنا أصنافًا لتحذر أن تكون واحدًا منهم، فإنّ هذه الأحوال لا يكشفها إلا المعاملة، أو فِراسة مؤمن. وإليكم أمثلة على ذلك:

المثال الأوّل: المحافظة على الصّفّ الأوّل، والباعث عليه أسباب:

أ- ظهوره أمام الناس، في الصّفّ الأوّل خلف الإمام.

ب- طمأنة المتعاملين معه.

ج- تلقّي الرّكبان، أعني تلقّيه للصّالحين من الوجهاء وذوي المال والمنصب لقضاء مصلحته، ومنهم من يظنّ أنّ مصالحه قضيت ببركة صلاته في الصَّفّ الأوَّل.

د- للإنكار على من لم يشهد الصّلاة أو يتأخّر عنها، والتّعنيف على ذلك بما ينفِّر ويولِّد العجب، وأوّل من ينفر ولده.

المثال الثّاني: إرخاء اللّحية، وبعضهم يبالغ في تركها وإهمالها يصطاد

بها مقاصده، وهؤلاء أصناف:

أ- منهم من يكون من الفقراء، يصطاد بها من غير حيلة ولا كذب.

ب- ومنهم من هو من كبار الصّيادين، وهذا النّوع يعتني بإكرام شعره ولحيته ونفسه، يخدع بها في الصّفقات الكبرى.

ج- ومنهم من يحتال بها لبيان أنه من أهل العلم والدّين والصّلاح، ليلجأ إليه النّاس عند الشّدائد، ويطلبونه للرقية وشبهها.

المثال الثّالث: التّكسب بالقرآن، وإظهار أنّه من أهل الله وخاصّته؛ لأنه يحمل القرآن، ولذلك صورٌ لا تخفى، من أظهرها قراءته في المآتم.

المثال الرّابع: إظهار الإخبات والولاية، ولذلك صورٌ، منها:

أ- طأطأته لرأسه في المشي.

ب- تسبيحه واستغفاره وحوقلته وتكبيره ليُعلم ذلك منه.

ج- صناعة أثر للسّجود في الجبهة والقدمين، ليكون له منه شاهدٌ فيه.

د- محاولة إظهار الرأس إذا كان حُلق للعمرة أو الحجّ، ليعلم أنّه

حجّ أو اعتمر.

هـ- تقطيب الوجه عند ذكر معصية أو عقوبة، على سبيل الافتعال.

و- استدراج من حوله ليخبروه بأنّهم غير صائمين ليعلموا أنّه صائم، وربّما اجتهد في إظهار إخفائه لصومه بما يصدق عليه أنّه ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور: ٥٣].

واعلم أنّ التّنبيه على هذا مقصودٌ منه التّحذير والنّصح، لا إساءة الظّنِّ بالمسلمين، فكن على حذر من هذا، ولا يسُؤْ ظنّك بي أنّي أقول: الأصل في النّاس هو ذاك.

*****

(١٥)

عجيبة!

ما كشفُ ما نجده في الرّجل من رِقّة في الخُلق ولطف في الطبع، ثم لا تجد له طريقًا إلى النّجدة والعون والإيثار؟

الكشف:

نعم، في بني آدم من هو كذلك، وهؤلاء أناس مسالمون، وغالبهم يكفّ عن الاستعانة بغيره؛ لئلا يستعان به أو يحتاج إليه، وفيهم

ضربٌ من البخل، ولكن علّة تخلفهم عن النّجدة هو الجبن الذي يتّصفون به؛ لأنّ الشّجاعة بنوعيها (الأدبي والجسدي) هي التي تحمل صاحبها على الفزع إلى إغاثة الملهوف، وتنفيس الكُرَب، والذّود عن حياض الضّعفاء، ونصر المظلوم. وتجد الواحد منهم يقصّ لك قصص الكرم والشّجاعة والنّبل، وهو أبعد ما يكون عن مثلها، وهؤلاء لا يعادون أحدًا، وربما كان من جنسهم نوع لا يخلو من شجاعة، ولكنّ قلبه مملوء بحذر غالب على طبعه. والله أعلم بأسرار عباده.

*****

(١٦)

غيرة المرأة!

لِمَ تضعف غيرة المرأة إذا كانت إحدى ثلاث أو أربع، وتقوى إذا كانت إحدى اثنتين؟

الكشف:

ذكرت في بعض كتبي أنّ الخوف هو العلّة الجامعة في فعل الأشياء وتركها، ولا تخرج الغيرة عن أن يكون من ورائها الخوف. والمرأة تخاف حين تكون مع ضرّتها أن يميل إلى ضرّتها،

فإذا بنى بأخرى ضعف هاجسها واطمأنت، وتفرّقت غيرتها، ولم تخش من زوجها أن يضعف فيطلقها، وربما زاد واحدة، فيبقى عندها بعض الخوف، حتى يكتمل العِقد بالعَقد بالرّابعة فتذوي غيرتها وتذوب شيئًا فشيئًا، وتأمن الطلاق لأنّ الخيار لديه أوسع إذا أراد مفارقة واحدة، وتأمن من شماتة النّساء، ويعلم النّاس بهذا أنّه لم يعدِّد لعيب فيها أو نقص أراد أن يعوضه في غيرها، فإنْ كانت ذات ولد، كان أمانها أكبر، وتثور غيرتها بقدر ثقتها بالحرص على بقائها.

*****

(١٧)

المحبّة بين النّاس!

ما سرّ محبة أناسٍ لأناسٍ لا لمعروفٍ بينهم أو تعارفٍ من قبل؟

الكشف:

بعض ذلك من معاني قول الله تعالى ذِكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم]، وهذا خاصّ بالمؤمنين.

ولكن الواقع ملآن بأصناف المودّة والمحبة، وذلك أنّ مُصرِّف القلوب -جلّ شأنه- أوجد فيها عاطفة لو جُسّدت لملأت الكون والآفاق، ولا يسع القلوب إلا تفريغها، فتراها تتعلّق بأيسر الأسباب التي تميل إليها، ولو حبست مكنون حبّها لارتدّ عليها غمًّا وكآبة، والأسباب الجاذبة للحبّ والوداد لا تحصى إن عُدّت، وطرقها التي تنفذ إليها منها كثيرة، وآلاتها السمع والبصر والتّوهمّ، وكم من إنسان عشق بأذنه قبل عينه، وتعلّق بسمعه قبل بصره، وفي النّاس من عشق صورة لم يرها إلا في منامه، وهذا هو الذي سمّيناه التّوهم.

والقلوب الفارغة أكثر تعلّقًا، والنّساء في ذلك أكثر، وأكثر تعلقاتهن بالمعاني والخصال، والمنصب والمال، وأكثر تعلّقات الرجال بذوات الحسن والجمال.

ومن الأسباب الجالبة للتّعلّق: جمال الصّوت، وحسن الخطاب، والعلم، والعقل. ومن تجربتي أنّني إذا قرأت كتابًا لمصنّف أعجبني أكلّف به زمنًا، ويتمثّل لي خياله، وربّما رأيته في المنام. ويقع لي ولغيري محبّة مفرطة من المطالعين لتواليفنا، كما أخبرنا بذلك بعضهم.

*****

(١٨)

الموريات!

إن قيل: هل في القرآن استعظام لأحقاد الرّجال، ومكرهم؟

قلنا: نعم، هو في قوله سبحانه: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾ [العاديات] على أحد التّفسيرات.

*****

(١٩)

بعض أنواع الحمق!

إن قيل: هل في القرآن كشف لحمق بعض من يحج البيت الحرام؟

قلنا: نعم، هو في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠﴾ [البقرة].

*****

(٢٠)

إيثار الدّنيا!

إن قيل: أين في القرآن أنّ مصلحة الدّنيا إذا عارضتها مصلحة

الآخرة.. انفضّوا إليها؟

قلنا: هو في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١].

*****

(٢١)

رفع الصَّوت!

إن قيل: أين في القرآن ما يدلّ على أنّ الذي يرفع صوته في موضع لا يحتاج إلى رفع صوتٍ ضعيفُ العقل؟

قلنا: هو في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحُجُرات]، وقوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

*****

(٢٢)

نذالة الإنسان!

إن قيل: هل تعلم في القرآن آية تكشف عن نذالة الإنسان ولؤمه؟

قلنا: نعم، في ذلك آية بل آيات محكمات، منها قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس: ١٢].

*****

(٢٣)

اللّوْم!

إن قيل: هل في القرآن آية تكشف أنّ قليل الصّبر قليل المروءة؟

قلنا: نعم، هو في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾، ثم قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فُصّلت].

*****

(٢٤)

الذّكاء والعقل!

إن قيل: هل في القرآن دليل على أنّ الذّكاء غير العقل؟

قلنا: نعم، في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [المُلك] وقد كانوا دهاةً أذكياء.

*****

(٢٥)

من عجائب الخاطر!

يقع لكثير من الناس، وأخبرني بذلك غير واحد، أن يتذكر الإنسان رجلا طال عهده به، ولم يخطر على باله منذ زمن، فيتّفق أن يراه ذلك اليوم.

الكشف:

هذا أمرٌ يقع لي أيضًا، ولذلك أسرار، ولا أعلم أهو من ائتلاف الأرواح، أم هي أمور يتّفق حصولها، ويكون الخاطر قد ورد من قبل، ولكن صاحبه لم يتنبه له إلا ذلك اليوم الذي طابق فيه الواقع الخاطر، ثم ما يدرك أن الخاطر هو سبب استدعائه، وأنه وقع له أن يلقاك؛ لموافقة خاطره خاطرك.

فالأمر -إذن- لا يخلو من حالين، بل ثلاثة، بل أربعة، إمّا أن يكون خاطرك كان بمنزلة الرسول إليه، أو كان خاطره هو الذي استدعى خاطرك، أو اتفق الخاطران، أو كان ذلك على سبيل ما نطلق عليه مجازًا: المصادفة، وهو في الحقيقة قدر مكتوب.

وفي الذّهن جيوش من الخواطر تمرّ به، لا يُلقي لها بالا، فإذا وقعت تذكر أنّها مرّت به يومها ذاك. ولقد خطر ببالي يومًا أني

سأحصِّل أمرًا مفروحًا به، وسعى إليه رجال عظام، فلم يظفروا به، فلم ألبث أن اغتبطت به في مُدّة قليلة، والرّحمن إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، ويهيئ له من الأسباب -إن شاء- ما لا يخطر على قلب.

*****

(٢٦)

العشق!

هل العشق مرضٌ؟

الكشف:

يعُدّه القدماء ضربًا من المرض؛ لأنّه يتخلل الرّوح ويُهيّج الفكر، ويريدون بذلك نوعًا منه؛ لأنّه أنواع، ولكن لما غلب العشق على التعلق بالصّور صار لا يطلق إلا على ذلك، وفي مصطلحات أهل التصوف (العشق الإلهي) ولا يعدّ مرضًا عندهم، وكيف يعدّ مرضًا ما لا يذكر سوى الله؟

هذا هو الأصل، ولكن لما خرج حبّ العبد لله عن الهدي

النّبوي، وفَقَد البصيرة ونور النّبوة، وتشبّه بعشق المجانين صار مرضًا من هذه الجهة.

والعقل والعاطفة عِدلان، كلّ منهما يعدل الآخر، فالعاطفة تهدي إلى الحبّ والكلف، والعقل يدعو إلى الاتباع، والسير على الطريق. وفي العلماء من غالى في العقل وأهمل العاطفة، وفي العُبّاد من لم يُعمل إلا العاطفة، والسبيل ما ذكرت لك.

*****

(٢٧)

سِرٌّ!

لِمَ يحب بعض الناس أن يشبههم غيرهم فيما يقع لهم من النّوائب، وما يكون فيهم من العيب في الخِلقة والخُلق؟

الكشف:

لذلك سرّ أكشفه لك، هو أنّ الناس في الأصل يحبون التّفرد في الخير ويحبّون أن يشاركهم غيرهم في الشّرّ. وأصل ذلك في الكتاب العزيز: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا

﴿٢١﴾ [المعارج]، فهو منوع للخير؛ لأسباب منها: حبّه أن يكون فاضلا على غيره بما أصاب من الخير، وهو جزوع إذا مسّه الشَّرُّ؛ لأنه يريد أن يكون فاضلا بالسّلامة.

ويقول إذا مسّه الشَّرُّ: لأيّ شيءٍ مسّني الشَّرُّ، والنّاس من حولي سالمون؟ ويقول: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦]، فإذا أصيب غيره بمصيبته رأى جواب سؤاله وعلم أن في النّاس مِن حوله مَن هو مثله.

وسرّ آخر، وهو أنّه يُضعفُ الشّماتة به، ويصبح موضعها مشاعًا بين اثنين أو ثلاثة أو أكثر، وكلما كان أكثر كان ذلك أضعف لتوحد الشّماتة والتّعيير والانتقاص.

وقد لحظتُ المعنى الذي حواه السؤال في خلق من الناس، وأدركتُه في نفسي في أيام الاختبار ونحن نتنافس في مراقي النّجاح، حتى في المراحل العليا، فيفرح الواحد منّا إذا أخطأ منافسه، وكنت أقول: هذا لا يدخل في قول النّبي صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه**»، فهذا مقام منافسة وسباق، وفرحي بضعفه، أو خسارته، أو تخلّفه أمرٌ جبليّ، واليوم أقول غير ذلك، وأقول: يكفي أن يحبّ أن يكون المرء هو السّابق وغيره اللاحق وكفى، وأن يحبّ لغيره التّوفيق لا الإخفاق والتّخلف، وغير ذلك ممنوع، ألا ترى

أنه لا يجوز للمتنافسين في البِرّ أن يحبّ أحدهم لأخيه أن يدع الخير ويترك العمل، أو أن تبطل صلاته، أو يضعف عن أداء الفريضة، أو يفسق، أو يكفر؟

وتطبيق معنى الحديث الذي ذكر على التّمام لا يوفّق له إلا أهل الكمال.

وأمّا الفرح بالرزايا النّازلة بغيرك والتّمادي في ذلك فخُلُق مذمومٌ، ولا يخلو منه ذو أثرة (أناني)، وربّما تذاكى أحدهم حين يعلم بمصاب غيره، فيظهر الحزن والتّأسف والاسترجاع، وقلبه طافحٌ بالسُّرور.

*****

(٢٨)

الخوف والحزن!

يقول أحد فلاسفة اليونان: الخوف أشدّ من الحزن؛ لأنّ الخوف لم يكن مكروهًا إلا لما فيه من الحزن.

الكشف:

وما أظنّ هذا الفاضل إلا مخطئًا في إطلاقه؛ لأنّ الخوف فيما يُتوقّع، وقد يقع، وقد لا يقع، والخوف يمكن التّحصّن منه إذا وقع

في كثير من الأحيان، ولأنّ الخوف متعلّق بحصول ما يُخاف منه، فإذا حصل ذهب الخوف.

وأمّا الحزن؛ فإنّه طويل الأجل في الغالب، والذين ماتوا من الحزن لا يُحصون، ولا نكاد نعرف من مات من الخوف، والحزن لا يقدر صاحبه على التّوقي منه، ولا ينفعه التّنقّل والبعد عن الموضع إذا كان الحزن متمكنًا منه.

ولكن قول هذا الحكيم يصدق على بعض أنواع الخوف، التي تقابل بعض أنواع الحزن، ومن ذلك: الخوف الذي يصاحبه حزنٌ، كالخوف على العيال من الموت لفقر أو مرض. فأمّا الحزن فهو على البؤس والمرض، وأمّا الخوف فهو من أن تلتهمهم المنيّة.

والإطلاقات بينها وبين الصّواب المطلق جفوة في الغالب.

*****

(٢٩)

التّعصب!

من أيّ شيءٍ ينشأ التّعصب؟ وما سرّه؟

الكشف:

التّعصّب طبع في الخليقة، والظّاهر لنا في ذلك هو ما يكون في الإنسان وسائر الحيوان، وموضوعنا الإنسان. والتّعصّب في بني آدم مركّب من حقائق وأوهام، ويختلف ويتفاوت، فمنه ما يكون مركّبًا من الحبّ والوفاء، ومنه ما يتركّب من الكبر والعناد. ومنه ما هو اعتقاد ومحبّة. وللجهل سريان في بعض ذلك، والغفلةِ أيضًا.

وأكثر ما يطبع عليه البشر التّعصّب للقبيلة، والنّسب، والعرق، والوطن، وأمّا الدّين فهو موضوع التّعصّب المشترك، فما من صاحب ديانة إلا ويتعصّب لها، ويترقّى التّعصّب في ذلك إلى بذل الرّوح والمال، ولو إلى غير غاية، وأمّا المؤمن فيبذل ذلك بثمن هو الجنّة. ويلي ذلك التّعصّب لمبدأ أو مذهب أو لشخص بعينه.

والتّعصّب كلّه مذموم إلا ما كان للحقّ، والحقّ لا يثبت على الدّوام في كلّ الأحوال، إلا مع معصوم.

والتّعصّب المذموم يولّد أخلاقًا سيئة، وخلافًا وشقاقًا وبغضة.

والتّعصّب في أتباع المذاهب الأربعة، أقواه عند الحنفية، فالمالكية، فالشّافعيّة، فالحنابلة.

وأشنع منه اليوم: تعصبُ المتحزِّب للأحزاب والجماعات تعصّبًا دينيًّا، يُضلِّلُ فيه مَن سواه، ويرى في حزبه حسنًا ما ليس بالحسن، فتراه يغضّ الطّرف عن الخطأ الكبير يكون من أفراد جماعته وحزبه، ويَتأوّل له، ويَلتمس له الأعذار، والأصل عنده إعمال السّتر، وحسن الظَّنّ، فإذا كان من غير الجماعة، فالأصل في التّعامل معه - عنده- سوء الظَّنِّ، والتَّحذير، والتَّشهير، واتّهام النِّيّة.

فلو أفتى أحدٌ من جماعته بحلّ الغناء عذَره، وقال: مجتهد له اجتهاده، ويعذر في خطئه، وإذا أفتى غيره مِن غيرهم، قال: هذا صاحب مؤامرة، ودعوة للخلاعة والخنا والفحش.

بل لو أصدر صاحبه رأيًا أو فتوًى تزهق الأرواح، وتقتل البرءاء؛ لوجد له الأعذار الواسعة، ولكنه يضيق به الصّدر أن يجد عذرًا للآخر في رأي في مسألة من صغار المسائل.

وقد ذكرتُ في كتاب «الخواطر» تفصيلًا بذلك، تحت أصناف الدّعاة أنقله ههنا بنصّه:

«الدّعاة في ميدان الدّعوة كثير، والذي يظفر بأجر الدّعوة وشرفها هو من دعا إلى الله على بصيرة ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ

ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ولكن فريقًا منهم يَدْعون وهم يحسبون أنهم على شيء؛ لأنهم يظنون أنّهم يَدْعون إلى الله وهم يَدْعون إلى أنفسهم أو إلى الجماعة أو الحزب. وهذه بعض ملامح هذه الفئة، ولا أعني بها جماعة بعينها، بل هي موجودة في كلّ الجماعات بلا استثناء على نسب مختلفة:

١- لا يراعي الواحد منهم في معاملة الآخر من غير جماعته شيئًا من معاني الأخوة الإسلامية، من حبّه لأخيه ما يحبّه لنفسه، وحسن الظنّ به، والذّبّ عن عرضه، والتّألم لألمه، والفرح بما أعطاه الله من خير، بل يفرح لحزنه، ويحزن لفرحه، ولا يحبّ له الخير أصلًا، ويرى أنّ موته خيرٌ من حياته، ويقدّم الفاسق المجاهر عليه في المعاملة والمداراة؛ لأنّه يرى أنّ ضرر المتدين أكبر من ضرر هذا، وأنّه أشدّ له عداوة.

٢- لا يقبل الحقّ من الخلق إلّا ما كان من حلق أصحابه والمنتمين إلى أقطاب جماعته، أو حزبه، أو مذهبه.

٣- الأولوية عنده في كلّ حقّ يستحقه أحدٌ من خلق الله هي لأفراد جماعته، ولا يجوز عنده المفاضلة في هذا الباب، بل لا يجوز المساواة، وينسى كلّ أوامر العدل ومعانيه، ويرى في مخالفة ذلك خرقًا لسياج الدّعوة، ودفعًا في وجه مصالحها.

٤- لا يجتهد في مناصحة من يخالفه ولا ينتمي إلى منهجه، ولو كان زميله الذي يجالسه ويخالطه، بل يشرب معه الشّاي ضحًى، ويحذّر منه حين يُمسي.

٥- يصدّق كلّ تهمة قيلت عنك، وكلّ عيب ذكر فيك، فإذا كانت التّهمة في واحد من قومه قام يدافع عنه، وقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحُجُرات: ٦]، وربّما ذكر القراءة الأخرى {فتثبّتوا}، فإذا ثبتت التّهمة لجأ إلى الكلام عن فضل السّتر على المسلم، وخوّف من إشاعة الشَّرّ في المؤمنين، وحذّر وأنذر.

٦- يسعى إلى المناصب؛ لأنها ثغور يجب أن تحتلّ وأن يملأها من يستحقّها، ولا يستحقّها إلّا من كان على شاكلته ومشربه، كلّ

ذلك من أجل الإسلام وخدمة الإسلام في زعمه، فهو في صراع دائم من أجل ذلك.

٧- يرى أنّه يجب أن يحارب على جبهتين، جبهة يدعو النّاسَ فيها ويعلمهم الخير، ويُلايِنُ فيها أعداء الإسلام. وجبهة أخرى يحارب فيها من يسمّيهم أعداء الدّعوة، ومن يسمّيهم خصوم الدّعاة من الإسلاميين، وبين هاتين الجبهتين أكمة ينادي من أعلاها إلى حزبه وجماعته.

٨- حين تكون له مصلحة لدى مسؤول يتلطّف معه ويغضي بصيرته وبصره عن كلّ سوء، وربّما قال له: «حبك في الله»، أو كتب في خطابه كلمة (محبّكم)، وقد لا يكون في بعض ذلك حرج، فليس من الكياسة أن يكون في مقام الالتماس إلّا اللطف، ولكن الحرج في دعواه المحبة، ونسيان ذلك الجميل، واتّخاذه المسؤول مطية، وإظهار معاداته حين تحين الفرصة، واتّخاذه سبيله ذلك منهجًا للضّحك والاستغفال.

٩- رُبَّما يودّ أحدهم لو يقطع عليك كلّ طريق تعمل فيه للإسلام ونفع العالم؛ لأنّه فيما يرى عملٌ غير صالح، فلا تسألنّ

بعد ذلك عن الأفاعيل التي يفعلها، والكيد الذي يكيده، والمسالك التي يسلكها.

١٠- التّعاون لديهم على البرّ والتّقوى لا يكون إلّا لمن انتمى إليهم، وأيّد منهجهم، ولهم طرق في تجميع الولدان وطلبة العلم لشهود محاضراتهم ودروسهم.

١١- علامة الولاء والحبّ لدى الأتباع من غير المنظّرين والمعروفين لديهم، زيارة أقطابهم، والثّناء عليهم.

١٢- لا يكتفي بالحكم على ما بدر من خصمه من مخالفة، أو توسّع جرى فيه على فتوى متساهلة في رأيه، بل يحكم على باطنه، بأنّه يكيد للإسلام، ويريد كسر عجلة الدّعوة بمعوله الهدّام هو ومن وراءه.

١٣- إذا رأوا أنّ ذلك الشّيخ يجب إسقاطه دبّروا أمرهم بليل، وتواصوا على ذلك، وقاموا ومَشَوا، وتكلّموا وكتبوا، وقعدوا له ولكلّ قريب له كلّ مرصد.

وبعد؛ يا طالب العلم: فالوصية لك أن تعتزل هذه الجماعات كلّها، ولا تعادِ أحدًا منهم وإن عادوك، فإنّ معاداتك هي ثمرة من

ثمرات غراسهم الذي غرسوه، فلا ينل منك الشّيطان تلك الثّمرة الكاسدة الفاسدة، وصُكَّه بيمين الاستعاذة على وجهه، وأدم النّصح بشرطه المعتبر على وجهه، ولا تقع فيما وقع فيه أولئك، فإنّ الشّيطان لم ييأس من التّحريش بين النّاس، لا سيما المسلمين، لا سيما أهل العلم والدّعوة.

وأوصيك بأن تأخذ من كلّ شيء أحسنه، ومن كلّ نهج مستحسنه.. وليكن قائدك في ذلك الصّدق والبيان، ولا تملأ قلبك شحناء على إخوانك، وأطع الله ولا تعصه فيمن عصى الله فيك ولم يطعه، واعلم أنّ كثيرًا منهم أو أكثرهم يريد الخير ونفع الخلق، بل هذا هو الأصل، ولكن التّعصب المذموم، وسوء الظَّنِّ، والأثرة، هي الحوالق الثّلاث التي حلقت أضداد هذه الأمور، وخلقت العداوة والبغضاء والتّنازع والتّفرق فالفشل، وأكيس النّاس اليوم من لم يُعرف إلّا بأنّه مسلمٌ يتّبع قولَ الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم، فمن حصل له ذلك كان كمن كان في عصر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم بإحسان، والله يجمع بيننا وإليه المصير).

*****

(٣٠)

علامة النّجابة!

ما علامة نجابة الغلام؟

الكشف:

الغلام الذي يفضّل أباه على أمّه وإن قسا عليه بعضَ قسوة هو غلامٌ نجيبٌ، وتفضيله أباه دليلٌ على علوّ همّته، وسيره في طريق الرّجولة، والدّليل على ذلك أنّه بهذا الفعل يطمح إلى أن يكون رجلًا وإن كان طفلًا. وميلُه إلى مخالطة الرّجال شاهدٌ على شجاعته وجرأته، وسعيِه للوجاهة والمكانة، لا سيما إن كان أبوه من أهلهما. وقرأت في بعض الكتب: أنّ من علامة نجابة الصّبيّ أيضًا: أنّه حين يلعب مع أقرانه يقول: من يلعب معي؟ وأمّا الصّبيّ الخامل فيقول: مع من أنا؟

وهذا كلّه لا دلالة فيه إلا على الجرأة وعلو الهمّة، لا على الذّكاء. فقد يكون الخامل ذكيًّا، ومفضِّلُ أمّه نابغًا بين أقرانه لمعنًى من المعاني، ومنها أن تكون الأمّ أزكى وأذكى.

*****

(٣١)

بُعد المحبّ!

لِمَ يبتعد المحبّ عمّن يحبّ إذا غاضبه؟ والابتعاد لا يكون إلا عن كره للمخالطة؟

الكشف:

قد يكون ذلك لغضب غالب يغشى المحبّة، ومن عادته أن لا يدوم، بل لا يطول، إلا إذا زادت أسباب المغاضبة.

وربّما كان له سبب آخر عند ذوي العاطفة المفرطة، وهو استدرار عاطفة المحبوب وجذب إشفاقه ومحبّته. وإشعاره بقيمته ومكانه عنده، وليظهر الفراغ الكبير الذي تركه له.. فإذا كانت مغاضبته لظلم وقع عليه، وكان الظّلم مؤلمًا قوي ذلك، وقد يرتقي إلى تمني الموت، وأن تبخع نفسُه، ويجد في تخيّل ذلك -لو وقع- لذّة.

فإن قلتَ: لأيّ معنًى يجد لذلك لذّة؟

قلتُ: يجد في ذلك لذّة لما يتخيّله من حزن المحبوب عليه، وندمه على ما كان منه، وشعوره بالحاجة إلى من فقد، وهو بذلك يخفّف من

همّه، وإذا خفّ الهمُّ حلّ محلّه الفرح، والفرح نوعٌ من اللّذة.

وهذا المعنى تسمع مثله من بعض الأدباء، لا سيما الكبار منهم حين يقول أحدهم لأهله وبنيه: ستعرفون قيمتي إذا متُّ. وهذه الكلمة التي يقولونها بأفواههم هي من وحي الواقع، وكم من إنسان لم تُعرف قيمتُه إلا بعد فقدِه، وفي مقابل ذلك: كم من إنسان لا يُستراح منه إلا إذا هلك.

*****

(٣٢)

هروب النّفس!

ما علّة هروب النّفس حين تهرب، وممّ تهرب منه؟

الكشف:

الفرار ممّا يخاف المخلوق منه أو يحذره طبعٌ لازمٌ لا يدفعه إلا العقل، أو الدّين.

والفرار من الحقائق المخيفة أو الضّارّة لا عيب فيه، وهذه الأحوال التي يعاب الفرار فيها ويذّم صاحبه:

- الفرار الدّال على الجبن والخور، فهذا مذموم شرعًا وعقلا وعُرفًا.

- والفرار من أمر لا ينفع الفرار منه.

- ومن ذلك: فرار النفس من تعب عاجل قليل يكسب راحة طويلة.

ومن عجائب بني آدم: الفرار من اليقين، وهو الموت، ومن عجائبهم: الخوف من الكلام عنه ومن ذِكره؛ وذِكرُه لا يُقدِّم ولا يؤخِّر.

ومن الفرار الخفي أن يُسوِّف في التّوبة؛ لأنّه يخشى ذِكر الموت، ومن الدّقائق البعيدة: أنّ بعضهم يتوهم أنّ التّوبة علامة على قرب الأجل؛ لأنّه دليلُ عناية من الله، وهو -أي العبد- لا يريد ذلك الآن.

*****

(٣٣)

الفرح!

هل الفرح يقتل؟ وكيف يقتل؟

الكشف:

نعم؛ قد يقتل الفرح صاحبه إذا بلغ ذِروته وجاوزها، هو معلوم

طبًّا (في الطب القديم)، ولا أدري ماذا يقول عنه الطبّ الحديث، وبمَ يسميه؟ وهو معلوم بالقياس والنظر؛ لأنّ الشيء إذا جاوز حدّه أضرّ بصاحبه، ومعلوم أيضًا من حيث الواقع ضرر الفرح إذا زاد، وكم من إنسان يعتريه ذلك، ويؤذيه الفرح وهو لا يدري، وفي المطعومات ما يكسب الفرح ويزيده، ويقول قدماء الأطباء: إنّ الزّعفران ربّما قتل من شدة الإفراح. وأمّا قول الشّاعر:

طفَح السّرورُ عليَّ حتى إنّه ... مِن عُظْمِ ما قد سرّني أبكاني

فليس منه؛ أي: ليس من النّوع القاتل، بل هو درجة من درجات السّرور التي تنتهي بالدّمع. وسرُّ البكاء في هذه الحال ليس زيادة السّرور وما حصل من طفحه وغلبته، ولكنه رقّة يتذكّر بها المرء رحمة غيره عليه وحزنه، ألا ترى إلى الطفل والمرأة حين يعتذر منهما مَن مسّهما بأذًى أنّهما يبكيان؟! فهذا من هذا.

أمّا الفرح الذي يؤذي صاحبه فشيءٌ آخر.. وقد عرض لي ذلك مرّة فلم أتخلّص منه إلا بأكل الحامض والمرّ، والرّياضة ونحوها.

وممّا قرأتُه في كتب الطبّ القديم قديمًا أنّ الزّعفران مفرح، وربّما قتل فرحًا، وللقرنفل نوع إفراح، ولا بدّ أن يكون للعلم الحديث دراسة في هذا، فليبحث عنه؛ لأنّي أخذتُ بناصية العزم أن لا يركن الذّهن إلى غير الفكر والمعرفة لديّ، والسّبب في خفاء أمره

عـن النّـاس أنّـه بعيـدٌ عـن الإدراك القريـب، غريـب عـن العـادة. والمستقرّ في الأذهان أنّ الفرح يزيد في الصّحة وينفع القلب، وهو اعتقاد صحيح، ولكنّ الكلام هنا عن الفرح الطافح.

*****

(٣٤)

كشفٌ عن خبايا الحافظة

الـذي يحفـظ كثيـرًا ولا يتخيّـر؛ لأنّ حافظتـه تلقـف بـلا تأمّـل، يُسمعك الطّيب وما دونه، وتتضاءل عنده ملكة اختيار الأحسن والأعذب، وهو مفيدٌ، ولكن الأنفع منه هو الذي يختار من كل شيء أحسنه، ومن كل علم مستحسنه، فهذا لا يُسمِع إلا ما يُطرِب وما يُعجِب؛ لأنّه لم يَستوعبْ ذلك إلا بعد إعجاب واستحسان.

*****

(٣٥)

كيف يكون للرّجاء في الغيب ما ليس له في الشّهادة؟

الكشف:

قال بعض من أجرى الله على لسانه الحكمة: كن لما لا ترجو أكثر رجاءً ممّا ترجو، فإنّ موسى عليه السّلام ذهب ليقبس لأهله

نارًا، فلقي الله يكلّمه، عاد بالرّسالة.

لعلّك تجمع الكتب وتجتهد في العلم، ولكنك لم تنل ما تريد.. فإيّاك أن تعجز، فإنّك لا تدري لعلّ الله يربّيك لتهيئ السّبيل إلى رجل من صلبك ينتفع بأثرك، ويسلك سبيلك ويؤتيه الله ذكاءً وزكاءً، ويكون من أفراد العلماء، وينفع الله به العالم.

كان والدي -أكرم الله نُزله- يقول: إنّما جئتُ إلى الحجاز ورحلت بالأهل من أجلك، وأمّا أنا فشيخٌ كبيرٌ!

وأنا اليوم أقول في نفسي: لعلّ في الأولاد أو الأسباط من أكون له عُدّة، ويكون خيرًا منّي، ولي مثل أجره.

*****

(٣٦)

كيف تفقد البصيرة نورَها؟

الكشف:

١- أعظم آفة هي فقدان البصيرة، وهي أن لا تهتدي إلى الطريق، ولا تجد من يَدلّك ويَهديك إلى سواء الصّراط.

٢- الآفة الثّانية: أن لا تكتشف موهبتك، ولا تدري عن قدراتك

وميلك، فربّما كان في داخلك شاعرٌ كامنٌ ولكنك لا تدري، أو أديب كاتب، وأنت لا تشعر، أو ملكة فقهية، وأنت لا تعلم، فتذبل تلك المواهب، أو تُقتل؛ لأنك وجهّتَ نفسك إلى غير وجهتها، أو أريد لك أن توجّهك قدرتك إلى شيء آخر.

- كيف تعرف موهبتك؟

اعلم أنّ المواهب ثلاث:

إحداها: موهبة ظاهرة، تعرفها أنت ويعرفها غيرك من غير تعب، كحسن الصّوت، والقدرة على البيان.

والثانية: موهبة ذات قوة ومضاء تشبه الملكة الأولى ولكنها تحتاج إلى شيء من الاكتساب كملكة الشاعرية، فإنها إن كانت قوية لا تدع صاحبها، بل تظهر قبل بلوغه.

الثالثة: ملكة نائمة تحتاج إلى إيقاظ وسقي، وهذه هي التي تموت إذا أُهملتْ وتُركتْ، وكثيرٌ من أصحابها تُدفن مواهبهم في صدورهم وهم أحياء، وما قُتلتْ إلا بذنب الإهمال.

وربما قَتل المرء موهبته بالغرور والكبر، فيفقد حينئذ نور البصيرة، وعلاجُ ذلك التواضع، والإخلاص، ومعرفة قدر النفس،

والصبر.

فهذا المعنى يجب أن تعرفه وأن تكون منه على ذُكر. وستلقى في ذلك الطريق أنواعًا من العقبات، وستتجلّى لك معانٍ لم تعهدها من قبل، وصبرك عندها وجهدك هما اللّذان يزيدانك بصيرةً ومحبةً للمعرفة، وهما المغذيان لجيَشان الفكر واحتدام الخاطر، وذكاء القلب، وربما انكشف لك مسائل غلط فيها الكبار، فتقع في حضيض سافل، وهو الغرور العلمي الذي يصيب كثيرًا من الأذكياء، ويقع في وهْمك أنك فُقتَ أولئك الكبار، وسبَقتَهم في الفهم، وركبك العُجب، وأهلكتَ نفسك وضيّعتَ علمك.

ومن فتّش عن بواعث الغرور والعُجب في أهل العلم، وجدها في أمور، أجملها في ثلاثة:

أحدها: ضعف الإخلاص، وطلب الصّيت والشهرة، وطلب العلم لمباهاة أهل العلم.

الثّاني: الجهل.

الثّالث: ضعف العقل.

*****

(٣٧)

الكشف عن أحوال الباكين

البكاء دليل الخشية إذا عرض للقارئ والخطيب، من غير تكلّف ولا تمثيل. ولكنه حين يكون حقيقة فيه دليل على الخشية والرّقّة، وههنا أمورٌ تقع لبعض الناس في مواقفهم مع أصحاب هذه الأحوال، أنبّه عليها:

أحدها: لا يلزم أن يكون الباكي أخشى من غيره، وفلسفة ذلك أنّ البكاء طبيعة يختلف فيها النّاس، فقد يظهر على بعضهم وينقطع صوته ويجري الدّمع من عينيه مغزارًا، وآخر يتقطّع قلبه بكاء، ولا يكاد يظهر ذلك عليه، ولا يساعده الدّمع، ولذلك شواهد كثيرة.

الثّاني: وهو أنّ النّاس يختلفون في حضور القلب، وتصور المشهد الذّهني، فمن النّاس من يتمثله كأنه رآه رأي العين، ومنهم من هو دون ذلك، ويكون البكاء بحسب ذلك.

الثّالث: يختلف النّاس في العاطفة والعقل وإدراكات أخرى، والبكاء عاطفة باعثها الخوف والإشفاق، والباكي يجتمع حاله مع عاطفته أكثر من غيره، ويكون ذلك هو الباعث الأقوى، لا فضل

الخشية والتقوى.

الرّابع: إيّاك أن تحكم على امرئ بالصّلاح المطلق، وأن تمنحه الثّقة الكاملة لمجرّد بكائه أو تباكيه، فإنّ من النّاس من يحضره الورع والخشية في العبادات، ولا يحضره مثل تلك الواردات في المعاملات وحقوق الخلق.

وسيصيبك شيءٌ من الدّهشة إذا قلتُ لك: إنّ أكثر البكّائين من أقسى النّاس على الخلق، وأكثرهم أثرة، وحبًّا لأنفسهم، وأصدقهم عداوةً لمن أساء إليهم، وأقلّهم تسامحًا.

وأعرف من عامّة النّاس من كان يسيل دمعه لأدنى موعظة، فإذا طلبتَه ريالا واحدًا يُنفقه لم تحصلْ عليه إلا بعد نُصبٍ وعذاب.

وآخر -رحمه الله، وغفر له- كان من البكّائين، فاغترَّ به بعضُ أصحابنا وأحبَّه، ثم صاحَبه فأقرَضه، ثمّ زوَّجه ابنته، فلم يَلبث أن طلّقها، بعد أن أذاقها لباس الذّلّ والهوان، ولم يَردَّ ذلك المال، إلا بعد طول مِطالٍ.

والحاصل: أنّ البكاء ليس بمقياس على الفضل، ولا على كمال

الصّلاح. غير أنّي أستدرك -ههنا- وأقول: إنّ البكاء وجريان الدّمع الذي يغلب المرء دليلٌ على شيء من حياة القلب مهما كان عمل الإنسان وتناقضاته.

*****

(٣٨)

الكشف عن حقيقة الصّلاح

في المجتمعات من يحكم لك أنّك تقيّ صالح لأنك تشهد الصّلاة جماعةً، وفيهم من يحكم لك بذلك إذا كنت بكّاءً، وفيهم من يحكم لك بذلك لأنّ لك لحية طويلة لا يمسّها الجلمان، وثوبًا تبدو منه السّاقان. وفيهم من يراك تقيًّا إذا كنت تعبّر الأحلام، أو ترقي الأنام.

والصّحيح غيرُ هذا كلّه، وأنّ الصّلاحَ لا يتبيّن إلا بالمخالطة، ومِن آياته الصّدق، والأمانة، أو تعظيم شعائر الله، والكفُّ عن محارم الله، وحسن الخلق.

وأما ما سوى ذلك؛ فهو ثقافة يَغرِسُها أهل العلم والدّعوة في قلوب النّاس، ولكلّ أهل بلدة عُلّامها.

وقد رأيتُ من يخلط أيضًا بين الصّواب وبين عمل الإنسان،

فيقول: كيف يكون قوله صحيحًا، وهو لا يحضر صلاة الفجر جماعةً مع النّاس إلا مرّتين أو ثلاثًا في الأسبوع؟!

وقد يُصلي المرء في بيته المفروضات، لاعتزاله واستيحاشه من الخلق، ولأنّه لا يرى وجوبَ صلاتِها في المسجد جماعةً.

*****

(٣٩)

الخوادع

ليس بخفيٍّ ما يكون بين النّاس من خداع بعضهم بعضًا، لكن الخفيّ ما يكون من خداع أنفسهم لأنفسهم، وهم لا يشعرون. فترى المرء في حزن ظاهر على حبيبه الذي فقده، وعيناه تفيضان من الدّمع ممّا عرض له من المصيبة، ويجد في نفسه سرورًا، قد يفسّره المؤمن بالسّكينة، ويفسّره العرفاني بالرِّضا، ويفسّره النفساني بحبّ الذّات، وهو السِّرّ الذي لا يدركه إلا ذوو الفِراسة والإيغال في معرفة دسائس الخَلق، وقد شرحت ذلك.

وترى من يدّعي الحبّ من الرّجال والنّساء يتمنّى لمحبوبه الهلاك إذا ظهرت له علامات تدلّ على ميل محبوبه إلى غيره، وترى المرأة التي

تعشق زوجها في زعمها يعرض لقلبها سرورٌ إذا جاء زوجها حزينًا كئيبًا من عند ضرّتها، فإن علمَت أن ذلك بسبب إيذائها له زادت فرحتها، وامتلأ قلبها بذلك.

وترى الرّجل يتزيًا بزيّ أهل الصّلاح وسمتهم، ثم يصدِّق نفسه أنّه منهم، وهو لغفلته يجتنب ذنوب الشّهوات، ولكنه إمام في الظّلم والاحتيال على المال وكسب الدّنيا، كيفما كان!

*****

(٤٠)

كشف عن الذّهن

هل الأسرع فهمًا هو الأقوى ذهنًا؟

الكشف:

ليس من اللّازم أن يكون الذهن القويّ أسرع في فهم المسائل السهلة ممّن هو دونه في الفهم؛ لأنّ من عادة من يغوصون في الغامضات أن يفكّروا في كلّ ما يرد على أذهانهم، فيقفوا عند يسير المسائل، وتثير أذهانهم أسئلة، وربّما ولّدت شكوكًا، وربما صارت البدائه عندهم من المحيّرات. وتمرّ على أذهان متوسطي الذّكاء ومن

دونهم، ولا يقفون عندها، فلو قال قائل: اشتريتُ هذا الكتاب من مالي، لفهم السّامع أنّه من ماله، أي: فلوسه، ولكن الفيلسوف يقف لينظر، فإذا نظر بدا له احتمالات، منها: ما فهمه السّامع، ومنها أنّ المراد بمالي، بلاد مالي، ومنها أنّ «ما» في «مالي» موصولة، وهلمّ جرّا. وكثيرٌ من مسائل العلم والتفسير والتعليلات النّحوية وسع فيها الخلاف وكثُرت التشقيقات بسبب هذه الاحتمالات الواردات على أذهان الأذكياء.

وما يرد إلى الذّهن لأوّل وهلة هو الذي يتعين الأخذ به، وما عداه احتمال.

*****

(٤١)

فعل الإيحاء!

لأي شيءٍ يظهر المرء ما ليس من طبعه على أنّه طبعٌ؟

الكشف:

اعلم أنّ افتعال الشّيء لإظهار الحياء أو الشّجاعة أو الجمال، أمرٌ مطبوعٌ عليه البشر، وهو في النّساء أكثر، ألا ترى إلى قول نابغة

بني ذبيان:

سَقط النّصيفُ ولم تُردْ إسقاطَه فتَناوَلتْه واتَّقتْنا باليدِ

فنبّه بقوله: «ولم ترد إسقاطه» على ذلك؛ لأنّه معهود في الفعل، ومعهود في الأفهام، وعند الأنام، أن تسقط المرأة.

وقال ابن حزم: وما من امرأة تعلم أنّ رجلًا ينظر إليها إلا وأحدثتْ حركةً فاضلة كانتْ بمعزلٍ، وأتتْ بكلام زائد كانت عنه في غُنية، مخالِفَيْن لكلامها وحركتها قبل ذلك؛ ورأيتَ التهمّم لمخارج لفظها وهيئة تقلُّبِها لائحًا فيها ظاهرًا عليها لا خفاءَ به؛ والرجالُ كذلك إذا أحسُّوا بالنِّساء. وأمّا إظهارُ الزِّينة، وترتيبُ المشي، وإيقاعُ المزح عند خطور المرأة بالرَّجل واجتيازِ الرّجل بالمرأة، فهذا أشهر من الشمس في كل مكان.

*****

(٤٢)

لأيِّ معنًى يكون السّكوت أصعبَ على الثّرثار من الكلام، والسكوتُ أروحُ منه؟

الكشف:

ليس الأمر كما قلتَ، إنما يكون السّكوت أروح وأحبّ إلى

النّفس لذوي التّعجب والفكر، وأمّا الثرثارون فألسنتهم تعمل أكثر من عقولهم، ولا يجدون راحة إلا في كثرة الكلام، وهم أقلّ تحسّسًا من غيرهم، فلو غفل السّامع عن حديثهم لا يلومونه ولو قاطعهم لا يكادون يعاتبونه؛ لأنّ همّهم الأوّل هو إخراج الكلام والحديث، وأكثرهم لا يُراعي انفعالات السّامع بكلامهم، وربما كان المتحدث منهم يحدِّث السّامع ويعجب ويضحك من تعاجيبه، أي: أنّه يكون المتحدِّث والسّامع معًا.

والنّساء يحمدن الرجل إذا كان كذلك لأنّه يفضي بكلّ شيء، ولا يدع سرًّا، أو لا يقدر على ذلك، والرّجل الحازم لا يميل إلى ذات الثّرثرة والبربرة من النّساء.

ويقال: إنّ رجلًا ابتُليَ بامرأة مهذارة، فاصطلح معها على أن تثرثر يومًا، وتسكت يومًا، ليُريح أذنَه وقلبَه، فلما قضي يوم الثرثرة جعلت تقول في يوم السّكوت: «بكرة الرّغْيّ، بكرة الرّغْيّ»!

فصارت المصيبة أعظم؛ لأنّها كانت من قبلُ تُلوِّنُ الحديث في ثرثرتها، ويكون في بعض كلامها بعضُ فائدة، واليوم لا تَنطِقُ إلَّا بكلمتين تُكرِّرهما!

*****

(٤٣)

لماذا تَكثر الحيلة في الشّيوخ، ولو كانوا ذوي ورع وزهادة؟

الكشف:

يجنح الشّيخ إلى لطف التّدبر، وحسن المأخذ في كبره، ويجعل ذلك عوضًا عن قوّته الجسدية، وإذا كان فارغًا من العمل لم يكن له غير الصّلاة وأوراده إن كان من الذّاكرين، لم يكن له إلا التّدبير والتّفكير في المدخل والمخرج، والحيلة، والكيد إن احتاج إلى ذلك، والسّاكتون منهم أقوى حيلةً، وأنفذ رأيًا من غيرهم.. وقد وقفنا من ذلك على نصيب وافر.

ولهم في حسن التّعليل وإلقاء المعاذير مداخل لطيفة، وهم محلّ ثقة؛ لأنّه لا يظنّ بهم إلا الصّدق، وإلا الوضوح والصّراحة، وأنّ ما يحصل منهم هو نوع من البراءة:

وتجد أحدهم إذا كان له ولدٌ يَجفوه أنحَى باللائمةَ عليه، وأكثَر من التشكّي، وجعَل ذلك وسيلةً للاستعطاف.

وإذا أصيب بمرض كالسّكري؛ جعَله عذرًا لغيابه وتأخُّره في عمله، وعذرًا لغضباته ولعناته، وعذرًا لطلاقه، وعذرًا لقلّة مقاربته من نسائه، وعذرًا لإكثاره من الحلوى، وعذرًا لإقلاله منها، ويجعله

سببًا لتكليف من حوله بمراقبته والعناية به في أمور كثيرة.

وهو فوق كلّ ذلك سببٌ لدخوله للجنّة، والمرض -ولا شكّ- من المكفّرات، ولكن الشّكوى لا تأتلف مع الصّبر والرّضا.

ويستمتع بكبره في تنجيز أموره؛ لأنّه كبير، وينادي من شاء من الشّباب والكهول بنحو: يا ولدي، ويا بُني، ويشير بحركات خفيّة يفرضها الواقع بالتّوسعة له، وبالجلوس في المكان المناسب، أو الجلوس على كرسي، وربّما ادّعى النّسيان لكبره، وهو غير ناس، وتراه يبصر الأشياء، ويخفي أنّه يراها، ويعتذر بما سمعه بأنّه لم يسمعه.

ويعتمد على من شاء في وقوفه، ويجلس حيث يشاء، وكلّ ذلك متعة يمنحها الله للشّيوخ أزمان شيخوختهم، كما منحهم إياها أيام ضعفهم وهم صغار.

*****

(٤٤)

لِمَ يُؤذي المحبُّ محبوبَه، وربّما تمنّى موتَه؟

الكشف:

الغيرة سببٌ لذلك، وهذه الأحوال لا تنافي صِدق المحبّة،

والباعث الخفيّ من وراء ذلك: أنّ المحبّ يرى أنّه يملك محبوبه، وخروجه عن مِلكه، وعلاقته مع غيره سلبٌ لأغلى ما يملكه، وفي ذلك ما يخطف سعادته، ويذهب متعته.

ومن عادة بني آدم أنهم لا يحبّون المشاركة في مَن يَملِك إرادته، وهو الإنسان خاصّة، وهم يخافون من توافق من يحبّون مع غيرهم، ويُحذِّرون من انتقال هواهم إلى غيرهم.

وأمّا إيذاؤه له فهو تأديب له في زعمه، كما يؤدّب الوالد ولده، وكما تسقي الوالدة ولدها المحظيّ عندها دواءً مُرًّا، وكتأديب الشّرع الحكيم مَن خرج عن الصّراط المستقيم.

وأمّا تمنيه الأذى والموت لمحبوبه؛ فلأنه يرى أنّه غادر به، ناقض لأصول العهود، قاطعٌ لحبل الوداد، كما يرى أنّ في عدول المحبوب إلى غيره إهانة له، وغفلة عن جميل صفاته، واحتقارًا لذاته، وتنغيصًا للذّاته، وتدميرًا لحصن حياته.

وحقيقة هذه المحبّة عند الكشف أنّها محبّة للنّفس، توهَّم صاحبها أنّه يحبُّ محبوبه أكثر من نفسه.. وهو صادقٌ في دعواه عند نفسه، ولكنه لم يُكشَف له حقيقة ما يفعل؛ لأنّه لا بصيرة للهوى، ولو كان مع الهوى شيءٌ من العقل لنظر في مُرادات محبوبه، ولم

يسعَ في خرابها، ولجعل هواه تبعًا لهواه، ولأحبّ ما يحبّ، ولم يحذر إلا من وقوع محبوبه في محرّم إن كان من أهل الدّيانة.

وهذه درجة لا يبلغها إلا من فرّق بين عقله وعاطفته.

*****

(٤٥)

لمَ قد يَفرحُ المحذِّرُ مِن شيء بوقوعه!!

إن قلتَ: لأيّ معنًى يودّ المحذّر من شرّ أن يقع، أو يفرح بوقوعه حين يقع؟

قلنا: أمّا أمَله في أن يقع ما حذّر منه فهو من شرّ ما تنطوي عليه الأنفس الخبيثة، وليس هذا من خلق الصّالحين، ولا المصلحين، ولا الصّادقين في نصحهم ومحبّتهم للخير.

وأمّا الفرح به بعد وقوعه، فهو طبع نفسي يرى فيه صِدقه ونُصحه لمن نصَحه وحذّره وأنذَره، ويرى أنّه يستبين بذلك عقله وذكاؤه، وصدقُ حَدسه؛ ليقبل عليه النّاس بعد ذلك لثقتهم به.

ولا يَدخل في هذا ما أخبَر الله به رسلَه من العذاب الذي أمرَهم بأن ينذروا قومهم به، فهذا من نقلهم لا من عقلهم.

ثمّ إن رسل الله لم يكونوا قبل ذلك إلا راغبين في أن يؤمن أقوامهم، وأن ينجوا من عذاب الله الأليم.

*****

(٤٦)

لِمَ نجدُ بعض الأذكياء في العلم يَضعُف ويذوي كما يَذوي الغصن الرّطيب؟

الكشف:

اعلم أنّ هذا لا يقع لمن كان صادق النيّة مخلصًا، قد جعل لنفسه غاية ومقصودًا، ومدّ لذلك حبلا ممدودًا. وإنما يكون ذلك لمن كان همَّه النّاسُ وقولهم، مَدحُهم وثناؤهم، ومن راقب النّاس مات همًّا، ومعلوم أنّ الإنسان قد يعرض له ضعفٌ أو يكشف من نفسه جهلًا ما كان لمثله أن يجهله، أو يتعسّر عليه علمٌ من العلوم، أو يصادق من هو أعلم منه، أو غير ذلك، فيحبط نفسه، وينكسر عوده، ويبتئس.

ولو كان جادًّا في السّعي إلى تحقيق الهدف؛ لاستعان بالله ولم يعجز. وقد رأينا كثيرًا من النّاس من ذوي الذّكاء المفرط من ترك العلم، أو ترك الدّعوة إليه واعتزل، أو انصرف إلى الدّنيا، أو ترك التّدين جملةً.

وربّما كان من أسباب ذلك أن يكون له هدفٌ دنيويٌ كان يؤمّل أن يحقق فلم يحقق، أو كان يريد الشّهرة فلم يشتهر، والقلوب بيد الله يقلّبها كيف يشاء.

*****

(٤٧)

ما سببُ حِدّة بعض النّاس في الخصام في حال هدوء الخصم وضعفه؟

الكشف:

هذه مشاهد يحرص الشّيطان على شهودها ليؤدّي واجب التّحريش الذي لم ييأس منه. وذلك الانفعال إن لم يكن سياسة وكياسة فهو لؤمٌ وجبنٌ، يَظنّ صاحبُه أن خصمَه ضعُف واستكان، فيُظهرُ له قوّة، لا سيما إن كان بالحضرة من يؤيّده. وربما ظَنّ بعض الحاضرين أن سكوتَ الخصم اعترافٌ بأن المنفعلَ على حقٍّ.

*****

(٤٨)

تعبُ المناصب، وافتتانُ الناس بها

المناصب نصَب وتعب، وفي إجهاد النّفس بِها رَهَق للجسد، فلِمَ

يضجَر النّاس إذا عُزلوا منها؟

الكشف:

وكشفُ ذلك: أنّ الولع بالجاه طبعٌ بشري. ومن طبع الإنسان أيضًا أنّه يحبّ أن يحتاج إليه النّاس، وأن يكون له جاهٌ تُقضى به حوائجُه وحوائجُ الناس. وبين عزل المرء أو إقالته وبين الطلاق علاقة ومناسبة، وممّا ورثه النّاس من الحكمة: العزلُ طلاقُ الرّجال!

فإذا عُزل كُسر جناحه، واستوحش من النّاس لمعرفته بصدود النّاس عنه، وأكثر من تعظم عليه مصيبته في هذا من اغترّ بإقبال الخلق عليه، وظنّ أنّه لا فراق لجاهه ومنصبه، وأنّ التفاف النّاس حولَه لمصالحهم، لا لمحبّتهم له.

*****

(٤٩)

لأيِّ معنًى يختلف خُلُق الأخوين؟

الكشف:

الأخلاق منها ما هو طبع، ومنها ما هو مكتسب، ومنها ما هو

طبعٌ وغيّره الاكتساب، ولا يستوي الأبناء في وراثة الطّباع، ولا في الاكتساب، والنّوازع المكتسبة بالوراثة كثيرة، وفيها ما يكون من عرق بعيد، ولتفاوت الدّهشة والنّشوة والإعجاب وسائر الانفعالات يكون التّفاوت في الاكتساب، وقد يصادف الوارد محلًّا قابلًا في حالٍ تتيح ذلك، ولا تتيحه في وقت آخر. وبمثل هذه الأسباب يكون الاختلاف، ولنضرب لذلك مثلًا بالقسوة والرّأفة، إحداهما في أحد الأخوين والأخرى في الآخر.

فصاحب القسوة شاهَد من ألوان القسوة ما لم يشاهده ذو الرّأفة، أو كان يميل بطبعه إلى أبيه، والآخر إلى أمّه، إذا كان الأب ذا قسوة.

وأكثر ذلك أن يلاقي هو من الظلم ما لم يُلاقه الآخر، ومن تأمّل أحوال الظّالمين والطّغاة وحياتَهم علم ذلك.

وعن بشير المعتمر أنّه قال: «لو عُذِّب الطّفل الصّغير لتحوّل إلى ظالم مستبد»، أو ما هذا معناه. وما أظنّ الأمر خاصًّا بالصِّغار، بل كلّ أذًى يضع نواةً للكُره والانتقام، وكذلك سائر الأخلاق، إنّما تضعف بهتكها، وهل تألف المرأة الخنا إذا هتكت حياءً مرّة أو مرّتين؟

فهذا السّؤال الذي طلب الكشف سؤال عمّا يشبه المعلوم بأدنى تأمّل.

*****

(٥٠)

لِم يخاف الإنس من الجنِّ أكثر من خوفِهم من الإنس؟

الكشف:

ذلك من عجائب بني آدم، فإنهم يرون في كلّ حين ما يفعله البشر من الإفساد في الأرض، والقتل، وإهلاك الحرث والنَّسل، وصنع السّموم، والأسلحة الفتّاكة، والكيد والمكر، وفعل ما يؤذي أسماعهم وأبصارهم وأبدانهم وأفئدتهم.

وهم يجدون أنّه لم يُعِدَّ مَن أعدَّ القوّة، وآلةَ الحروب، والخططَ العسكرية، وجهز الجيوش، ورصد الحرس إلّا من أجل البشر، وأنّهم لم يعدّوا سلاحًا واحدًا للجنِّ، ولا يعلمون أنّ جنيًّا خرَّب بلادًا، أو سعى في الأرض فسادًا، أو أهلك أمّة وعبادًا، ولا أنّه سرق له متاعًا أو زادًا.

ونحن في عصرنا هذا في عامنا هذا -وهو سبعةٌ وثلاثون وأربعُ مئةٍ وألفٌ (١٤٣٧هـ)- يَموجُ بعض الأمم في بعض، ومشاهدُ الحروب تُحيط بنا، مِن قتلٍ ونهبٍ وتفجيرٍ وتكفيرٍ وإفسادٍ في الشَّام واليمن والعراق، وغيرها من بلاد المسلمين.

يرى بنو آدم ذلك كلّه، ويحذرون من مخلوق لا يُرى، ولعلّ خوف الجنِّ من الإنس أشدّ من خوف الإنس من الجنّ، بل هي الحقيقة الجازمة، فالإنسان هو سيّد المخلوقات على وجه الأرض، وله سلطانه وجبروته، وهو الخليفة في الأرض، وكلّ شيء مسخّر له، وكان الجنُّ خدمًا لسليمان مسخرين له، يعملون له ما يشاء، ولم يكن الإنسان خادمًا للجنّ يومًا من الأيّام.. هذه مقدمة، وأمّا جوهر الجواب عن السؤال، فهو من وجوه:

أحدها: الخوف من المجهول طبع إنساني، والجنّ لا يُرون، وحكمهم في ذلك حكم المجهول، ومن الناس من يخاف من المستقبل المجهول، فضلًا عن خوفه من ذوات مجهولة.

الثّاني: من أسباب ذلك: ما علق بالأذهان من أوهام وأساطير وأخلوقات، فيها أنّ من النّاس من خطفته الجنّ، أو قتلته، أو شارطته على أخذ ماله أو بعض عياله، ومنها: أنّ لهم من القدرة في الانتقال

للطافة أجسامهم ما ليس للإنس. ومنها: الاعتقاد الشّائع أنّ الجنّ لا يعجزهم شيءٌ، وأنّهم قادرون على صنع ما يشاؤون.

*****

(٥١)

هل للمولود من غير نكاح علامة يعرف بها؟

الكشف:

لا، ليس لذلك علامة يعرف بها، ولا ذنب له، غير أنّه إذا علم أنّه جاء من سفاح تسقط نفسه عند نفسه، وتهون عنده المبادئ والمثل، ويكتسي لباس الخذلان والهوان والانكسار، إذا كان الفاعل بأمّه في محيطه ومجتمعه؛ لأنّه لا يدري أيّهم أبوه، وقد يعاند إنسانًا أو يتعالى عليه أو يغالبه، ثمّ يقول في نفسه: ربّما كنت ولده، فما فائدة مغالبتي لامرئٍ كان سببًا في خذلاني قبل أن أخلق، ويقال: إنّ بعض الفلاسفة شتمه ولد زنا، فقال له الفيلسوف: أيّها الغلام، لا تشتم النّاس، فإنّك لا تدري لعلّك تشتم أباك.

فإن قدر على أن يعلم من هو أبوه، أو أيقن بهلاكه، هان ذلك عنده، وتفرّق همّه وسوء ظنّه بمن حوله، وأوهم نفسه أنّه ذو أب لا فرق بينه وبين غيره من الآباء، والخوضُ في هذا من باب الظَّنِّ،

والحكمِ على الغالب، والله ستِّيرٌ يحب السَّتر.

*****

(٥٢)

ما سبب عجَلة الإنسان؟

العجلة طبعٌ بشريّ مركوز في نفوس بني آدم، وفي القرآن آياتٌ تَدلّ على ذلك، منها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ [الإسراء: ١١]، وقوله: ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

والخلق فيها متفاوتون، ومنهم من يتطبّع على الأناة حتى يقلّ الاستعجال عنده جدًّا، ويُنْعت بالأناة التي يحبّها الله.

وأمّا سبب العجلة فأمر يعود إلى طباع مركّبة في الإنسان، منها: ضعف الصّبر، ولا أعني ضعف الصّبر عن الأناة، فهذا هو العجلة، ولكن مرادي ضعف الصّبر عن التّحمل فيما يكون فيه التّعب والألم.

ومنها: التّخلّص من الهمّ، ومنها: الفضول، ومحبّة معرفة ما لم يعلم كنهه.

ومنها: الطّمع، فكم من إنسان حمله الطّمع على العجلة في عمل شيء، ثمّ كان فيه حتفه، كقاتل قريب له ليرث ماله، ولهذا يعاقبه الشّرع

بأن يحرمه من الميراث، ومن استعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه. وهذه طباعٌ موروثة.

ومن ذلك: الخوف من الفوات والضّياع، وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يُحرّك لسانه حين يعلمه جبريل القرآن، وفي ذلك يقول مولانا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ [القيامة]، ويقول: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

وفي هذا دليلٌ لمن شكّ أنّ القرآن وحيٌ من الله، فيه دليلٌ له إلى الهداية أن القرآن من عند الله، لا من عند محمّد صلى الله عليه وسلم.

ومن ضعف بني آدم أنّ منهم من يغيب عن عقله تصوّر العاقبة التي يتوقّعها، وحياة صاحبها وما يحيط به من تقوّيها أو ضعفها، وقد يُطبع الإنسان نفسه على التّقليل من العجلة، فيكون أقرب إلى الأناة، وربّما أوغل في الأناة إلى البرود والأناة المذمومة، فيتوانى في مقامات النّجدة والنّفير، وإنقاذ المضطر، كالغريق والملهوف، ويصير من الثّقلاء الذين لا يطيق الأحرار العيش معهم.

ولو تأمّلتَ في أحوال الشّعوب والقبائل لوجدت فيهم من يغلب عليهم العجلة، ومن يغلب عليهم الأناة، ومن هم بين ذلك. ويَدلُّ ذلك

على أنّ للاكتساب بالطّبع والسّمع أثرًا، وربما كان من أسباب ذلك الأجواء والأطعمة.

*****

(٥٣)

ما صفة الحكيم؟

الكشف:

أوّل صفة تدلّ على عقل الحكيم قلّة كلامه، فإنّي ما رأيت رجلًا كثير الكلام إلَّا وكان ذلك دليلًا على خللٍ فيه، ولو عذُب كلامه.

وسبب ذلك أنّه قليل التّفكير والتّدبر.

ومن صفات الحكيم: تصغير ما يراه العامّة كبيرًا من أمور الدّنيا، بل يرى الدّنيا كلّها صغيرة، والسّفيه والأحمق كلّما سمع هَيعَةً طار إليها.

والأناة من صفاته اللّازمة، والحلم صفة غير لازمة له، ولكنها غالبة عليه.

وقد تغيب الحكمة عن عقل الحكيم، ويكون ذلك المغيب زيادة له في حكمته وعقله، وهو من أعظم الدّلائل على تمكن حكمته منه.

وربّما كان المرء حكيمًا في شيء دون شيء؛ لأنّ حكمته في ذلك كسْبية لا وهْبية.

وقد يكون الكافر حكيمًا في أمر الدّنيا، وأمّا حكمة الدّين أو حكمةُ الآخرة فلا يُؤتاها إلَّا المؤمن.

وقد يكون العامِّي حكيمًا بطبعه وسمعه فيما يناسبه، وكلّما قرب المرء من الفطرة التي خلق عليها ولم يدخل عليه من الواردات المنافرة لها ما يغيرها عن أصل طبعها - كلّما قرب من ذلك كان أدنى إلى أن يخرج من فمه بعض جواهر الحكمة.

وإنّك لتجد من شيوخ أهل البادية وعجائزهم أقوالًا ينطقون بها جوابًا أو سؤالًا أو مثالًا هي من الحكمة، وما أظنّ الكذّاب يكون حكيمًا أبدًا؛ إذ كيف يجتمع الصّدق والكذب، ثمّ يخرج منهما الحكمة.

ومن قبلُ كانوا يقولون: خذوا الحكمة من أفواه المجانين؛ لأنّ المجانين ينطقون بما في أنفسهم، أو ينطقون بما تملي عليهم أنفسهم، ولا يعترض على ما يقولونه شيءٌ من العوارض التي تمرّ بالعقل؛ لأنّ كل خوف أو حذر أو نظر في العاقبة يمرّ بالعقل، فيقدّم

صاحبه حينئذٍ ويؤخّر، وقد يغريه بالكذب خوفًا أو طمعًا أو حذرًا. والمجاذيب وهم أشباه المجانين، وكذلك المجانين لا يعرض لهم ذلك أصلًا. والمتصوّفة الصّادقة، أمثال الجنيد، وابن أدهم، وأبي معاذ الرّازيّ، وأبي تراب النّخشبيّ، وأبي يزيد البسطاميّ، الذين كانوا على الجادّة، على تفاوت بينهم، ومن قبلهم: الحسن البصريّ وسفيان الثّوريّ وغيرهما، هؤلاء وغيرهم نطقوا بالحكمة، وسرت حِكمهم في سمع الزّمان سَيران الأمثال، حتى إنّ المرء ليعجب كيف كان لهم من الحكمة في القول ما ليس للعلماء، ويتضاءل العجب بمعرفة أنّهم لم يكن بينهم وبين فطرتهم حاجب، ثمّ إنّهم بالغوا في تصفية النّفس وتزكيتها والغياب عن لواعجها وأهوائها، ولم يكن لهم من علائق سوى مقاصدهم، والعلماء حكمتهم في الفعل أكبر من القول، وهم المقدّمون في الرّأي فيما يكون للأمّة من رأي في الدّين والسّياسة.

*****

(٥٤)

ما سبب ضعف انتفاع أهل مكة من الحجاج في الرأي والعلم؟

قال قائل: يفد إلى مكة في العام خلقٌ لا يحصون كثرة، ولا يُنتفع

بما لديهم من خبرة وعلم ورأي، وغير ذلك.. فهل مردّه إلى طباع أهل البلد، وأنّهم يأنفون من الاستفادة من غيرهم؟

الكشف:

للسُّؤال نصيبٌ من الحقّ من حيث الجملة، لا على إطلاقه، فإنّ الله جعل لهم منافع ينتفعون بها، وأوجب عليهم منافع يؤدّونها إلى أهل مكة، وقال في من يفد إليهم: ﴿لِيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٧]، ومن المنافع ما يبيعونه ممّا يجلبونه من بلادهم، وهي منافع متبادلة، وأمّا ما يكون من انتفاع أهل مكّة، فكثير، منه ما هو حاصل بالفرض، ومنه ما يكون بالعرَض، وهو أشبه باللّازم، فأمّا الفرض فهو ما أوجبه الله من الهدي على القارن والمتمتع، وما أوجبه من فدية على من وجب عليه ذلك، وأمّا العرَضي فكبيعهم وشرائهم.

ولعلّ السّائل لا يسأل عن ذلك، ولا يسأل أيضًا عن الإفادات العلمية التي تكون منهم.

ولكنه يسأل عن أمر كبير، وهو أنّ قاصدي بيت الله يأتون من كلّ فجٍّ عميق، ولكلّ قوم حضارة ومعارف وعلوم، فأين أثر ذلك؟

والكشف عن هذا: أنّ بعض آثار ذلك موجود، ولكنه لقلّته كالخافي، وهذا القليل منه ما يكون بالتّعارف والمعاملة، ومنه ما يكون بالقصد بمؤتمرات أو ندوات أو محاضرات، وهذه المقصودات يعقدها الخاصّة، ومن يمثل البلد.

وأمّا العامّة وهم الأعمّ الأغلب فمقصدهم الأوّل هو تحصيل المال بما يقبضونه في شرائهم وبيعهم على الحجاج والمعتمرين، فهذا أحد أسباب ذلك، وهذا السّبب الأكبر، يضمّ إليه أنّ المدّة قصيرة في الحجّ، أو في العمرة، وهي في نحو شهر، وذلك لا يكفي إلا بأن يقضي الحاجّ والمعتمر والزّائر شيئًا من نهمته وشوقه إلى البيت العتيق وحرم الله وحرم رسوله.

ويُضعف الانتفاع المباشر في الرّأي والفكر في هذا العصر وسائل الفضاء والشّبكة العالمية، والطّبع والنّشر، فلا يقدم قادم دلّت آثاره عليه من خلال هذه الوسائل إلّا وقد عرف ما عنده، ولعلّ من معاني قوله تعالى: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [القصص:٥٧]، ثمرات العقول أيضًا.

وإنّما أجبت عن هذا السّؤال في خبايا النّفس لما قد يتوهّم أن

صدوف المكيين عن الانتفاع بالوافدين إلى بيت الله علمًا وفكرًا أو ثقافةً مرجعه إلى أمر في نفوسهم.

*****

(٥٥)

هل في صورة الإنسان علامات تدلّ على طبعه وخبيئة نفسه؟

الكشف:

أكثر النّاس في الكلام عن هذا من زمن قديم، وصنّفت فيه كتبٌ، ويُدرج الكلام عنه في الفِراسة والتّوسّم، وفي الكتاب العزيز: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحِجر]، وجعلها بعضهم أصلًا في الفراسة، وهو معرفة شيء من الباطن بدلائل الظّاهر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المحدَّثين الملهمين.

ومن النّاس من يجعل هذا ضربًا من الطّب؛ لأنّ الطّبيب يعرف داء الباطن بما يدلّ عليه الظّاهر، كالصّفرة في العينين، أو الشّحوب في الوجه، أو سقوط الشّعر، أو جفاف اللّسان، أو تغير الصّوت،

وغير ذلك.

ومنهم من يسلك به سبيل القافَة الذين يستدلّون بالشّبه والأثر، على النّسب والحال.

وجمهور من تكلّم في الفراسة يقولون: الخلقة المعتدلة في الرّأس والوجه دليل على استواء النّفس.

ولهم بعد ذلك كلام طويل في دلائل كلّ عضو من أعضاء الجسد، وفي دلائل الغضب، والضّحك، والصّوت، والنّفس، والشّبه ببعض الحيوانات، كدلالة شجاعة من يشبه الأسد في تركيب وجهه.

وربّما جعلوا للمسكن والهواء دليلًا على مزاج الإنسان ونفسه. والحقّ أنّ هذا أمرٌ لا ينضبط، لكنني وجدتُ علامة واحدة لا تَخيبُ، وفيها دلالة على صفة الإنسان في داخله، من فطنة وذكاء، أو حُمق وغباء.

فما من ذكيّ إلّا وكان في عينيه شاهدٌ على ذكائه وفطنته، وما من غبي أو أحمق إلّا دلّت عيناه عليه؛ وملامح العينين غير محصورة في صغرها وكبرها، وغَورها وجحوظها، وبطء حركتها ودورانها،

وتوسط ذلك كلّه، بل لها ملامح أخرى كثيرة، وبعضها لا يدقّ فيه الوصف، ولا يحكم عليها إلّا بالنّظر، واللّمح، واللّحظ، والتّحديق، والرَّمْق، والحملقة، وغير ذلك من نظرات العين وحركتها.

ويتّفق أيضًا عامّة من كتب في وصف الأحمق، وفي الفِراسة: أنّ دوران العينين الجاحظتين علامة الحمق. والحمق داء مختلف الأنواع كثير الأشكال، وأصنافه أكثر من أصناف التّمر، كما قال ابن حزم.

ولا يكاد يسلم منه أحد من البشر إلّا من شاء الله، وما من عاقل إلّا وخانه عقله، واتّهم نفسه بالحمق.

والمعيب هو الأحمق الذي يغلب عليه الحمق، وأمّا الأحموقات الصّغار، أو العارضة فلا يوصف صاحبها بالأحمق، وإن وُصف الفعل بأنه أحمق.

والحاصل: أنّ علامات العين هي التي يسهل ضبطها، وأمّا ما عدا ذلك من العلامات، فلا تضبط إلّا بالقيافة، أو بأن تعود إلى مجرّد ظنون، والظّنون ميون.

*****

(٥٦)

الإحسان إلى المرأة

لأي معنى يكون الإحسان للمرأة سببا في جحودها؟

الكشف:

المرأة شاكرة للإحسان في وقت الإحسان، مبالغة في ذلك كل المبالغة، ولكنها في تراكيب طبعها تنسى الإحسان، ولا تنسى الإساءة، وأكثر ما ينسيها الغيرة ودواعيها؛ وربما ظنت أن ذلك الإحسان كان للضحك على عقلها، كما يقال، ولتخديرها.

فإذا كان له امرأة أخرى أو أكثر ظنت أنه فعل ذلك من أجل أن يبقى سعيدًا مع غيرها، وأنه أراد شراء غيرتها بذلك.

وقد يقع في قلبها أنه يبذل لغيرها أكثر من ذلك الإحسان، أو أنه فعل ذلك ويفعله حين يريد قضاء لذة.

ولأبي مُرة -وهو إبليسُ- في ذلك مُدَّخل ومغارات يَختبئ فيها كثيرٌ من همزه ونفخه ونفثه.

*****

(٥٧)

الرجل أجمل من المرأة!

المـرأة تـرى الرجـل أجمـل منهـا، ولـو كـان في جمالـه دونهـا بدرجات.. ما علة ذلك؟

الكشف:

أما أي الجنسين أجمل؟ الرجال أم النساء؟ فالعقل يوجب أن يكون ههنا ثلاثة مذاهب.

أحـدها: الرجـل أجمـل، والثـاني: المـرأة، والثالـث: كـل منهمـا أجمل في عين الآخر![1].

والمذهب الثالث يؤيده الكلام المتقدم، ولكنني أرجح المـذهب الأول لوجوه، منها ما هو قوي:

أحـدها: الرجـال مفضـلون علـى النسـاء شـرعًا، وعقـلًا، وعـادة، وفطرة؛ والغالب أن الفاضل أكمل، والأكمل هو الأجمل.

الثـاني: الرجـل لا يحتـاج إلـى زينـة تكملـه كمـا تحتـاج المـرأة،

---

(١) قد يزاد على ذلك أقوال، منها أن الجميل من الرجال أجمل من الجميل من النساء، أو العكس.

فطبيعة خلقته لا تحتاج إلى زينة، واللحية من الزينة، وكلما بالغ في الزينة في غير لباسه تشبه بالمرأة.

الثالث: في الرجل ألوان من الجمال المعنوي؛ لأنه هو الذي يوصف بالشجاعة والإقدام والنجدة والعطاء والكرم والسخاء، وكل ذلك لا تمدح به المرأة، وإن اتصفت به شابهت الرجل.

الرابع: أن من أعطي شطر الحسن - وهو يوسف الصديق نبي الله- رجل.

الخامس: أننا نظرْنا في ذُكران سائر الحيوان وإناثهم، فوجدنا الذكر أجمل من الأنثى، وأبهى منظرا، وأحسن هيئة. وانظر إلى ذكور الضأن والمعز وإناثها، وإلى الديك والدجاجة، والأسد واللبؤة، وكثيرٍ من الدوابّ والطير ذكورًا وإناثًا؛ وما أظنك تجد الذكَر منها إلا فاضلًا، فإن لم تجدْه فاضلًا في جماله، فلن تجدَه مفضولًا.

ولو عُلِّمْنا منطقَ الطير والحيوان لسألناها أيُّ الفريقين أجمل: الذُّكرانُ أم الإناثُ! لأنها حكَم عدلٌ، ومبصرٌ محايد.

ومع قولنا بأن الرجلَ أجملُ من المرأة، فإننا نقول: كلُّ شيء في

موضعه حسن، فالخالق سبحانه خلق كل شيء فقدَّره تقديرًا، وأحسَن كلَّ شيء خلقه.

وأما النبات والجماد؛ فالغالب في الإناث أنها أجمل وأنفع، والإناثُ في الحيوان من غير الإنسان أنفعُ في الغالب.

ونجدُ الشجرةَ الأنثى أجملَ شكلًا، وأثقلَ حملًا، وأوفر ظلًّا، وكثيرًا ما تكون أكبرَ وأثقلَ وزنًا، كالشمس والقمر.

*****

(٥٨)

نظرة عجلى إلى الطبائع

في الكتاب العزيز آيات كثيرة تكشف أسرار النفوس، وتظهر أنواعًا من أخلاق بني آدم، يكشف الله فيها وهو العليم الخبير بمراداتها ومقاصدها.. لؤمها، وجحودها، وكنودها، وغرورها، وكبرها، وكفرها، ويأسها، وقنوطها، وعجلتها، وجهلها، ومحبتها للعاجلة، وتركها للآخرة، وضعفها، وفرحها، وفخرها، وظلمها، وشحها، وبخلها، وسفهها، وجزعها، وإعراضها، وطغيانها.

يقول سبحانه في اللؤماء: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ

قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس].

إنه لسنن عجيب أن يصير أمره إلى هذا الحال ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾.

وبنحو هذا يقول جل شأنه: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الزمر: ٨]، فهذا زاد شيئًا آخر، إذ جعل لله أندادًا، ولم يكفه أنه نسي ما كان يدعو إليه من قبل.

وهذا الصنف من الخلق بلغ من الجهالة ما لم يبلغه الصنف الذي قبله، وجمع بين الجهل وذهاب العقل المميز، وهو أشبه بالبهيمة بل هو أضل منها، يقول الله في الآية التي بعدها: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، فهذا الصنف لا لبَّ له ولا علم.

ويذكر الله في القرآن أخبار أقوام غرتهم أنفسهم، أو خَدعوا أنفسهم، أو تولوا عن عهدهم، أو جهلوا حقيقة ما هم فيه، أو ظنوا غرورًا، أو فخَروا سرورًا.

وما أمر فرعون وهامان، وخبر قارون إلا مَثَل من أمثلة ذلك؛ وما أمر الأقوام الذين كذبوا الرسل إلا شواهد على ذلك، وكذلك صاحب الجنتين، وأصحاب الجنة، والمنسلخ من آيات الله.

وما قصّ الله جل شأنه من أنباء بني إسرائيل، وما ذكره من أحوال المنافقين والكافرين كله كاشف عن نفوس ماكرة، كائدة، متلونة، كاذبة، خاطئة.

ولو قرأتَ ما قاله الله عن فرعون مما أخبر الله به عنه، أو حكم عليه به، لعلمتَ أنه بلغ من الغباء مبلغًا؛ إذ كيف يظن من له مُسكة من عقل أنه يقدرُ على بلوغ السماوات ببناء صرح على الأرض يَطَّلِع فيه على إله السماء! والظاهر أنه أمر بذلك وهو جادٌّ غير هازل، وسياق كلامه دال على ذلك.

ولو تأملتَ أقوال الأنبياء وما أخبر الله به عنهم في كتابه لوجدتَ فيهم من غلب عليه الحلم، ومن هو كثير الصبر، ومن يميل إلى المجادلة، ومن يبسط حجته في بيانه، ونجد من ذكر عنه العجلة والغضب في ذات الله، وغيرة على دين الله؛ ومنهم من هو أعلى في منازل الشكر، ومنهم الفصيح، ومنهم دون ذلك، ومنهم القوي في بنيته ومنهم دون ذلك، ومنهم من يرى الصفح عن المعاند، ومنهم

من يرى معاقبته، ومنهم الهادئ ذو الأناة ومنهم دون ذلك، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم استولى على محاسن الأخلاق، وجميلها.

وهكذا صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، فيهم من انطوت نفسه على الحزم، أو الشجاعة، أو القناعة، أو الزهد، أو الفقه، أو الحلم، أو العلم، أو الحكمة، أو البيان.

وانظر إلى العشرة الذين بشروا بالجنة، لكلٍّ منهم شمائلُه، بل لو نظرتَ إلى الخلفاء الأربعة لرأيتَهم متفاوتين في الحلم والعلم والكرم والشجاعة والقوة والحكمة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: عن أبي بكر: «وفي نزعِه ضَعفٌ، والله يَغفرُ له»، وقال عن عمر: «فلم أر عبقريًّا يَفرِي فَرْيَه»، وللعلماء من ذلك نصيب.

وإذا رأيتَ ثَم رأيتَ اختلافهم من هذا الضرب، وأنه يعود إليه. ولهذا أثر في الفتوى، فمن كان لينًا ميسرًا أحب التيسير واللين، ومن كان قوي النفس قوي الأخذ مال في أقواله وفتواه إلى طبيعة نفسه، ومن كان يحب العذر وسع دائرة العذر للخلق، ومن كان مدركًا لطبائع النفوس وأحوالها واختلافها توسع في ذلك على حسب معرفته بذلك.

وفي مذاهب الأئمة الأربعة ما يشهد لذلك. بل إن بعضهم ظهر من أقواله المذهبية في الفريضة الواحدة ما يدل على منهجه.

وانظر إلى صلاة المالكي، والحنفي، تجد الفرق واسعًا وانظر إلى رأي الشافعية والحنفية في الأنكحة، وانظر إلى رأي الحنابلة في المعاملات، وغير ذلك.

ومردُّ ذلك إلى الأفهام، وبعضه مرده إلى النفوس وطبيعتها. وهذا أمر يطول شرحهُ..

*****

(٥٩)

الكشف عن بعض أنواع الخداع باسم الدين!

يودّ الذين يتخذون دين الله وسيلة إلى عَرَضٍ، أو غَرَضٍ من أعراض الدنيا وأغراضها أن يخدعوا الناس بما يبعثون في نفوسهم من تحريك العاطفة الدينية، التي هي فطرة فطر الله الناس عليها، وإني لأعرف غير واحد من أصحاب محلاّت البيع، يكون للواحد منهم متجرٌ لبيع العطور الفرنسية، يضع فيه شابًّا أنيقًا وافر شعر الرأس، حليق شعر اللّحية، ثم يكون له متجرٌ آخر للعسل، أو للعود

الهنديّ والبخور، ونحو ذلك من السّلع التي يطلبها من يكون على مظهر ملتزم، فيضع فيه صاحبُ المحلّ عاملًا كثَّ اللحية، واسع الجبهة، عليها أثر السجود، فإذا جاءه من يستبضع عنده تلا عليه شيئا من آيات الله والحكمة في العسل، والطيب والمسك ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]، وهكذا يفعلون بعناوين محالِّهم التجارية، فهذا يفتح مركزا للرقية الشرعية، و ذلك ينشئ مركزا للطب النبويّ، وثالث للحجامة النبوية، كأنّ الحجامة لم تكن قبل مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم.

ولقد اقترحتُ – على سبيل الدُّعابة– على أحدهم أن يفتح مطعما يسمّيه «مطعم أهل السنة والجماعة» ليجني من الأرباح ما يشاء، ويفتح بعد ذلك أبوابا لمن شاء أن ينشئ مطاعم وحوانيت باسْم الأحزاب، فيفرِّقوا طعامهم شِبَعًا (بالباء الموحدة) كما فعل الذين فرَّقوا دينهم شِيَعًا (بالياء المثناة).

وما هي إلا شِباكٌ يضعونها لاصطياد السذّج وصالحي المؤمنين الغافلين.

*****

(٦٠)

الكشف عن بعض أنواع الغفلة وأسرارها

الغفلة العارضة التي يتبعها تنبّه الإنسان ويقظته، ثم لا يعود إليها مرّة أخرى= هي غفلة مغتفرةٌ، لا لوم عليها ولا جُناح، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف]، وأحبّ أن أذكر - هنا- ظاهرةً من ظواهر خطبائنا على منابر الجمعة وغيرها، ولهذه الظاهرة وجهان:

أحدهما: رفعُ الصَّوت في الدعاء في آخر الخطبة، يكون الخطيب منفعلًا في وعظه، محمرَّ الوجه، منتفخَ الأوداج، حاجباه في ارتفاع وانخفاض، فينتقل من وعظه وزجره إلى الدعاء، على حالته التي كان عليها، ويكون في حال دعائه كحاله الأول، ويذهل أنه يخاطب ملك الملوك، والملوك لا ترفع الأصوات عندهم، ويغيب باله عن نصوص الوحيين التي أَمَرت بالدعاء تضرُّعا وخُفية، وبينت أن رفع الصوت من الاعتداء، والله لا يحب المعتدين، وأن الداعي لا يدعو أصمَّ ولا غائبًا، وأن الله قريب، والقريبُ يناجى ولا ينادى.

الوجه الثاني: ذهولُه عن حاله في التفاتاتِه ونظراته، فإن كان قد يُعذر في رفعه، لغفلته بسبب سرعة الانتقال من الوعظ إلى الدعاء،

فكيف يذهَل عن توجهه، وأنه الآن انتقل من خطاب المخلوق إلى مناجاة الخالق، هذا ضعفٌ في الذَّوق، وخللٌ في حضور القلب وانفصال عن مواطأته للّسان، وغفلة فوق غفلة الصالحين.

*****

(٦١)

حلو الكلام

هل للكلام أثر مباشر في النفوس غمًّا وسرورًا؟

الكشف:

لو قال قائل: أكثر ما يصيب الناسَ من همٍّ وحزنٍ، وضعف في الهمم، وعداوة وبغضاء، هو بسبب سوء القول وغليظه وقسوته، لم يكن في ذلك مبالغة ولا تزيّد. وبضدِّها تتبيَّنُ الأشياء، فللكلمة الطيبة، والقول الحسن، واللفظ الجميل أثر صالح في الحياة، ولهذا امتنّ الله على أهل الجنة في هذا بالسماع، وبالقول.

فأمّا القول، فإنه قال فيه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤]، وأما السّماع، فيقول فيه جلَّ شأنه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢]، وفي الآية الأخرى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾

[الواقعة]، وقال عن الجنة: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾ [الغاشية].. ومن أقبح الألفاظ التي يُنعتُ بها الأطفال أفلاذ الأكباد (شقي، وشيطان، وشاطر) والشاطر أهونها؛ لأن لها معنًى عُرفيًّا حسنًا، وإلا فهي في الإطلاق اللّغوي المعجمي: من أعيا أهله خُبْثًا، واللصّ، ومن شطَر عن الحق، فإذا كان الطفل البريء يقال له في كلِّ حين: تعال يا شقيّ! واخرج يا شقيّ! وأين أنت يا شقيّ؟! صار معنى الشقاوة في نفسه كشجرةٍ يتعاهدها صاحبها بالسَّقْي كلّ يوم.. وكم من كلمة شفت من مرض، أو كشفت عن همٍّ جاثم، أو غم كاتم، أو حزن قابض، أو غضب عارض، أو وسواس رابض.. ومما يتداوى به رجال الأعمال في كبرى الشركات أن يُهيّأ لهم من يسمعهم صباح يومهم حلو الكلام، وطيب القول، وجميل الأخبار، وبشريات النتائج، ومفرحات الصفقات. فيمنحهم ذلك طاقةً يتحملون بها كلّ خبر يأتيهم آخر اليوم.. عن صفقة خاسرة، أو خبر سالب، أو جمود غالب.. وتلك طريقة مُثلى يُحتاج إلى أن تتخلق بها المرأة مع زوجها، وهو معها، وكذلك كلُّ من يلقى في يومه وحياته ضغطًا في عمله، لاسيما أصحاب المشاعر المرهفة، والقلوب الرقيقة.

*****

(٦٢)

المرأة في عيون الفلاسفة

لِمَ ذمَّ الفلاسفة القدماء كـ«هوميروس» وغيرِه المرأة؟

الكشف:

«هوميروس» من قدماء الحكماء الكبار وشعرائهم، وكان «أرسطو» و«أفلاطون» يجعلانه في أعلى رتب الفلاسفة وشعراء الحكمة، والعجيب في أولئك الحكماء ذمّهم للمرأة، وإلحاق النقائص بها، ونسبة الشرِّ إليها حتى كأنها الشرّ كله.

ولقد نظرتُ في كتاب جُمِع فيه طائفةٌ من حِكم «هوميروس» فوجدتُ له أكثر من عشرين قولًا في ذمِّ المرأة وانتقاصِها.

ومن أقواله في ذلك: «المرأة تقصّر أعمارَ الرّجال»، «إن لم تكن لك امرأةٌ عشتَ عمرًا صالحًا»، «المرأة لا تشير بشيء البتّة فيه صلاح»، «المرأة مولاة من تزوّج بها» أي: هي سيِّدته، بحيث تحوله إلى عبد، «المرأةُ تتملَّقكَ لتأخذ منك شيئًا»، «وجودُ المرأة الخيِّرةِ ليس بسهل»، «المرأة سبب عَطَبِ بيتها»، «تدفِنُ المرأةَ خيرٌ من أن تتزوج بها»، «قلّما تجد الأمانةَ في النساء»، «ما كان ينبغي أن تعيش المرأة»، «خلق المرأة أردأ من أخلاقِ جميع السِّباع»، «ثلاثة أشياء

رديئة (المرأة، والبحر، والنار)»، «المرأة السوء حزنٌ لازمٌ أبدا»، «لا تستشر امرأة في أيِّ وقت»، «لا تَفْتَرِ على امرأةٍ ولا تَعِظْها»، «إذا تزوجت فاعلم أنك قد صرتَ مملوكًا عُمُرَك»، «من لم يتزوج لم يصبْه بؤس» «كثيرٌ من شَقِيَ بسبب النساء»، «المرأة كثيرة الدَّغل والدّنس»، «يسهل عليك المعاش إذا اجتنبت النساء»، «المرأة مؤذية في البيت كأذى الشتاء»، «الزواجُ غاية الشقاء»، «ما أكثرَ أحزانَ عشرة النساء».

وقد تركتُ بعض ما قال.. ولا أقدِّرُ لأقواله سببًا إلا أن يكون واحدًا من ثلاثة أمور:

أحدها: أن يكون «هوميروس» ومن وافقه ممن ابتلي بامرأة سوء زواجًا أو عشقًا.

الثاني: أن نقدِّر أنّ المرأة اليونانيَّة في ذلك العصر كانت شرسَةً سليطة اللسانِ، وأنّ رجالهن لقوَّتهن كالجِمَال المستَنْوِقة.

الثالث: أنه نوع من التشاؤم والمبالغة، وأنّ داعي المبالغة وسببَه هو ما يحتاج إليه الفيلسوف من صفاء.. ولهذا آثر كثير منهم الحكمة وطلبها على الزواج.

*****

(٦٣)

مثال لتحول الشيء إلى ضده

قرأتُ في كتاب «الحمقى والمغفَّلين» أنّ أحدَهم رآه بعض رفاقه وهو يدغدغُ نفسه! فسُئل عن ذلك، فقال: وجدتُ نفسي مهمومًا فأردتُ أن أُضحِكها!

وإنّ من لطيف صنع الله في الإنسان أن جعل في جسده مواضع للضّحك بالملامسة، ولم يجعل فيه مواضع تثير البكاء.. ومواضعُ الإفراح من الإنسان: الإبط، وباطن القدم، وبعض المواضع في البطن، وليس ذلك إلا للإنسان، والناس متفاوتون في هذا، فيشتدُّ لدى بعضهم أثره إلى أن يبلغ به إلى الانفعال الغضبيّ لمجرّد الملامسة في تلك المواضع، والمبادرة بالدفع والضَّرب، ويضعف عند آخرين إلى أقلّ درجاته، وفي علم النفس المعاصر ما يفيد أن في المخ موضعين ينشطان عند الدغدغة فيضحك المرء، وللمفاجأة فيها أثر أكبر، ولهذا لا يقدر المرء على إضحاك نفسه، إلا أن يتغافل، ويفصل بين ذهنه ويده، ويوهم نفسه أنها يد إنسان آخر، وليس ببعيد أن (ينطلي) ذلك على المغفلين! كما صنع المذكور أعلاه.. إن هذه القوة التي يقال لها: الدّغدغة، لم تظفر إلى اليوم -

في حسباني- بدراسة وافية، تشرح كلّ بواعثها، وأسبابَ تفاوت آثارها، ومنافعَها ومضارَّها، وقد يكون من منافعها: أن تَشفي بعض المرضى، وتُهدّئ الغاضب حتى يرضى.

ويقال: إن الدَّغدغة (وتسمّى في مصر: الزّغزغة) كانت أسلوبًا من أساليب التعذيب في روما وألمانيا، في القرن السابع عشر، لا سيَّما إذا مُنع الإنسان من الانفعال حين يُدغدَغ، وربما قُضي على صاحبها ومات من شدَّة الضحك، أو كبتِ الانفعال، وردودِ الأفعال، والحمد لله على كلّ حال.

*****

(٦٤)

الكشف عن أحوال عجيبة

في الواقع المشاهد أمور لا تفهم إلا على وجه من النظر الفلسفي الدقيق.. ومن ذلك ما نشاهده من عجائب الاتفاق التي تحصل لأناس دون أناس، أو تقع لأصناف من الناس أكثرَ من غيرهم، فنجد – مثلا- من يلاحقه الرزق وأسبابه من كل مكان حيثما حل وكيفما سار، وقد يكون معه أخ له أو قريب يجتهد ويشقى في اجتهاده، ثم لا يجد إلا شيئا قليلا إن وُجد.. وهذا أمر حير الفلاسفة



وتزندق بسببه من تزندق، وهو الذي يقول عنه ابن الراوندي أو غيره:

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيتْ مذاهبُه ... وجاهلٍ جاهلٍ تَلقاه مرزوقا
هذا الذي تَرَكَ الأوهامَ حائرةً ... وصَيَّر العالمَ النِّحريرَ زِنديقا

ونجد كذلك من تلاحقه التعاسة حيثما كان، وأينما توجه.

ونرى إنسانا تلاحقه الطرائف، ومواقف النكتة وتحيط به، وتدور معه حيث دار.

ولعل للحكماء في ذلك تفسيرًا لم أعثر عليه.

والجواب البدهي – ولك أن تقول: البديهي – هو القدر، لا شيء غير القدر، غير أن إحالة الأمر إلى القدر قفزة عن خطوط دقيقة قبل ذلك، وهذه الخطوط هي الأسباب. والتفسير الذي أقدمه قد لا يقنع كثيرا من الناس؛ لأنه يحتاج إلى شرح طويل، حاصله: أن ذلك يعود في كثير من أحواله إلى ما طبعت عليه النفوس وما اشتملت عليه ومن جواذب تتصل بما حولها وتنجذب إليها كما ينجذب الحديد للمغناطيس. وأصل ذلك استعدادٌ متأصلٌ، جنودُه الفكر والروح وما يَعضدُه ذلك من قبول ومشاكلة في الصورة والهيئة والصوت والكلام، وأعظم أسباب ذلك الانجذاب والتجاذب هو

اعتقاد الإنسان وتفاؤله أو تشاؤمه.. ومن ثقافتنا الشرعية: «البلاء موكل بالمنطق»، و«من خاف من شيء سُلط عليه».

*****

(٦٥)

لذة العاقل

هل صحيح ما يقوله بعض العلماء: «اللذة لا تغلب العاقل»؟

الكشف:

هو قول حسن صحيح غريب. أما غرابته: فلأن المتبادر لأول وهلة أنه كلما كبر العقل كان إحساسُ صاحبه، واستمتاعُه أكبر، وتذوقه أشد.. وأما حسنه وصحته: فلأمور، منها: أن العاقل أعلم بعاقبة اللذة، وأنها كطيف الخيال سريعة الزوال، ودوامها من المحال.

ومنها: أنهم أكثر من يستحضرون في أذهانهم لذائذ مرت بهم من قبل، وتبعت تلك المسراتِ واللذاذاتِ مَساءاتٌ محتْ كلَّ طعم طَعِموه، وكلَّ حلاوة ذاقوها، كما يَستحضِرون أحوال مَن حولهم ومن سبقهم ممن تحولت متعهم إلى حسرات، أو عاجلهم هاذم

اللذات ومفرق الجماعات، فعلموا أنه لا أمان لشيء في هذه الحياة.

ومنها: أنَّ مَن جرَّب اللذتَين لذةَ الجسد، ولذةَ الروح والفكر، لم يبقَ عنده مكان واسع للذائذ الحسية.

والجامعُ لتلك الأسباب كلها أنّ العاقل يَعرُجُ بالروح إلى ما يَرفعه عن الطبع الحيواني، فكأنه متشبِّه بالملائكة في لذاذاته وإسعاداته النفسية.

نبذةٌ عن المتزمِّل بقميصي

وُلِد من أبوين كريمين في القرية، وكان أبوه فقيهَ القوم، وله مزارعُ يقتات منها، ويتَّجِر، ولَقِيَ الويلاتِ في حراستها من السُّرَّاق، بعد فقرٍ مدقعٍ، فتَعلّم الولدُ الهِجاء، وقراءة القرآن، وهو يَرعى الغنم، ومرّ به مخاوفُ وأهوالٌ في رعيه في الفيافي وهو دون السّابعة، وقلّ أن تمرَّ به أيّامٌ يسلم فيها من الضَّربِ والعقوبة، وكان عُرفًا معروفًا في القرية، لا سيما المنتمون إلى بني سعدٍ من قبيلةِ حربٍ، الذين كانوا باليمن، لا سيما الوالد والجَدّ، فقد نجّى الله والدَه من ذبح متيقّن؛ إذ أخذ الجَدّ الشَّفْرة وتلَّه للجبين، لولا أنْ أخذ من كان بالحَضرة بيده، فلا غروَ أن يقال عن والده ابنُ الذّبيح.

نشأ ذلك الغلام نشأةً صالحةً، وأتمّ حِفظَ القرآن بعد مُقامه في المدينة، ثمّ مكّة، وترقّى في سُلَّم العِلم إلى أعلى الدرجات والشهادات.

وكان ميّالًا إلى اللّهو، يحبّ الثّناء، ويصدّقُه ولو من غير صادقٍ، وكم ضَحِك عليه مَن حوله بمدحةٍ وثناءٍ فوهَبه ما يريد.

وهو يحبّ أن يكون السّابقَ في كلِّ شيء، الأوّلَ في كلِّ شيء، في الجدّ واللّعب والبيع والشِّراء، والمصارعة، والمجادلة، والكتابة

والقول.. الخ. عشِق كرةَ القدم لكثرة ما يُسْكِرُه من مديحِ مَن حولَه، مـع أنّـه متوسـطُ المهـارة في ذلـك، وتَقلّـب بـين الـدّفاع والهجـوم والحراسـة، وكـان ذلـك في المرحلـة الإعدادية. وكـان مـع ذلـك كثيـر التَّردّدِ على طائفة من أهل العلم للسّؤال، والاستماع، وتوليـد الأسئلة من كلامهم، حتى يعرفوا حالَ السَّائل، ولعلّه يَغنَم مدحـةً أو تعجبًا مـن ذكائه، وغوصِه في تلك المسائل الدّقيقة.

وكـان عنـده شـيءٌ مـن الأنفـة أو العـزّة يَحسبُها الجاهـل كـبرًا، ثـمّ تستحيلُ تلك العزّة إلى تواضعٍ وخفضِ جناح عند المخالطة.

ولديـه شـيءٌ مـن الفضـول والتّفـرُّس، والتّوسـط في حسـن الظَّـنِّ وإساءتِه، يثق بمن يُعامله لأوّل وهلة، ثمّ لا يَلبـث أنْ يـوقن في عجلـة في ثقته، ولا تتمّ ثقته في المرء إلّا بعد مراس طويل.

وهو سريع الغضب والفيء في معظم أحوالـه، قـويُّ الهمّـة، جيّـد العـزم، ثلـثُ قراءتـه أو قريـبٌ مـن ذلـك في كتـب الطِّـبِّ والحكمـة والتّراجم عن رغبة وميل زائدين.

وبعد جِدّه في طلبِ العلم حُبِّبَتْ إليـه العزلـةُ والسَّهر، فـلا يَنام في الأعـمّ الأغلـب إلّا نهـارًا، ويَعتريـه ملـلٌ وتقلّـبٌ في المِـزاج أحيانًـا،

وحدَّةٌ زائدة يُخففُها بالحِلم. كثيرُ التّفكر، كثيرُ التّأمّل، يَسبحُ في الخيال، يَخجَلُ من الكريم، ويُحرجُه الإكرام. يَأخذ التّعجبُ نصيبًا من وقته، أعني التّعجبَ من أخلاق البشر، وضعفِهم، وهو من أكبر نِعَم الله عليه.

أكثرُ تأديبه كان مِن نفسِه لنفسِه، بما عَلِمه مِن القرآن وهدي النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، وكلامِ أهل الحكمة وسيرِ النّبلاء، يُوصف بأنّه دقيق الملاحظة، وفيه فضولٌ.

له أصحابٌ يَحفظ لهم عهدَهم، ولا يَنسى فضلَ ذي فضل، ويُقْلقُه أن يُقصِّرَ عن مجازاته بالمِثل، فإنِ اعتاص عليه أن يُكافئَه بالمِثل فزِع للدُّعاء له، متسامحٌ يحبّ ما يُحبّه الله من العفو، إلّا أن يكونَ المسيءُ متعمدًا مصرًّا على الإساءة. وشعارُه في تعامله الصّدقُ والبيانُ، ويَرى أنّ ذلك إكسيرُ التّوفيق وقائدُ البركة، وخيرُ ما عنده مِن الصّدقِ صدقُ الوعد.

وأمّا عيوبُه عند نفسه فكثيرةٌ، والله سِتّيرٌ يُحبّ السّتر، وأمّا شأنُه في دينه فهو مجتنبٌ للكبائر إلّا أنْ تكون الغيبةُ كبيرةً.

هذه الخِلالُ هي نعتٌ لِامْرئٍ أنا أُشبِهه، فإن لم أكنْ أشبهُه فإنّه

يُشبهني، ويَقرُبُ شِبهُه منِّي إلى أن نكونَ كالذّات الواحدة.

كتبتُ لكَ هذه النّبذةَ الكاشفةَ عن كاتب الخبايا، وكثيرٌ ممّا ورد فيها ممّا هو في كثيرٍ من النَّاس، وبعضُها في بعضهم، وإنّما كتبتُها لبيانِ أنّ من يشرحُ هذه المعانيَ الكامنةَ عارفٌ بنفسه مُقِرٌّ بعيبِه، في شبابه وشَيبه، ولأنّي لو كنتُ مكانَك لحرَّكني فضولي لِأَعْلَمَ ما واراه عنِّي الغيبُ، من خُلقٍ وعَيبٍ.

فهرس الموضوعات